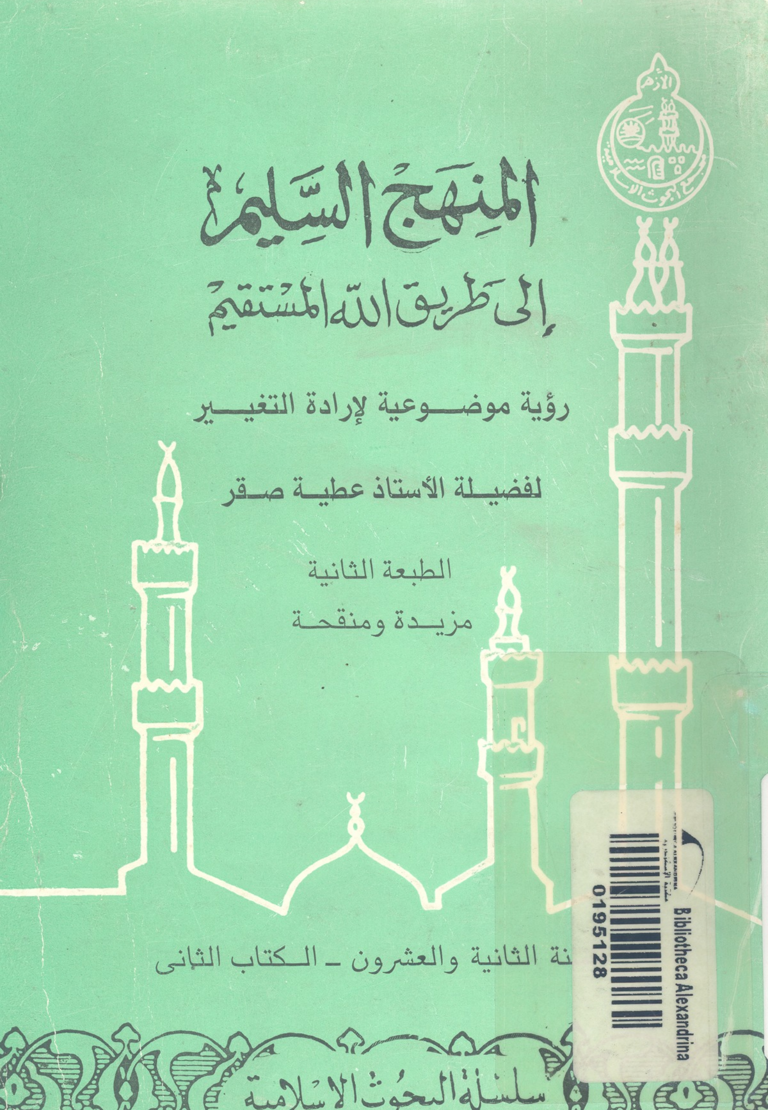


المنهج السليم

إلى طريق الله المستقيم

رؤية موضوعية لإرادة التغيير

لفضيلة الأستاذ عطية صقر

الطبعة الثانية
مزيدة ومنقحة

نة الثانية والعشرون - الكتاب الثانى

سلسلة البحوث الإسلامية



المنهج السليم
إلى طريق الله المستقيم

رؤية موضوعية لإرادة التغيير

لفضيلة الأستاذ عطية صقر

الطبعة الثانية

مزيدة ومنقحة

سلسلة البحوث الاسلامية

السنة الثانية والعشرون ـ الكتاب الثانى

١٤١٢ هـ ١٩٩١ م

بسم الله الرحمن الرحيم

« الحمد لله رب العـــالمين * الرحمن الرحيم *
مالك يوم الدين * إياك نعبد وإياك نستعين *
اهدنا الصراط المستقيم * صراط الذين أنعمت
عليهم غـير المغضـــوب عليهم ولا الضــــالين *

« قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ، يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم » .

سورة المائدة : ١٥ ، ١٦

« إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » .

سورة الرعد : ١١

« تركت فيكم ما إن تمسكتم به فلن تضلوا أبدا كتاب الله وسنتى » .

« حديث شريف »

« المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف » .

« حديث شريف »

لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح أولها .

الامام مالك

بسم الله الرحمن الرحيم

تقـــــــديم

لفضيـلة الأستـاذ أحمد السيد أحمد سعود

الأمين العـــام لمجمع البحوث الاســـلامية

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

أما بعد : فهناك إجماع من علماء المسلمين والباحثين المنصفين ، على أن توفير الحياة الطيبة للمجتمع البشرى لا يتم إلا بالقيم الرفيعـة ، التى يستقيـم بها الفكـر والسلوك ، وليست هناك قيم أرفع وأصدق من القيم الدينية، التى جاء بها الرسل من لدن حكيم خبير، كما قال سبحانه لآدم عليه السلام حين أهبطه الى الأرض :

« فاما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى . ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكـا ونحشره يـوم القيامــة أعمى »

وبحكم هذا القرار الإلهى ، عاش المسلمون الأولون

فترة طويلة من الزمان عيشة طيبة ، فقامت لهم دولة مترامية الأطراف ، تنعم بكل ألوان القوة والعزة ، حتى جذبت أنظار العالم ، وخطبت ودها كل الدول ٠

ولما تراخت صلتهم بالله حق عليهم الوعد ، فعاشوا فى ضنك ، وتخطفتهم الدول من حولهم ، ثم استيقظوا أخيرا ، وتعالت أصواتهم بالعودة الى الدين مرة أخرى، وهى يقظة محمودة ، وأصوات مشكورة ، غير أن الكثير منهم لم يقدم منهجا سليما يمكن به تحقيق هذه الأمنية، وذلك نتيجة لتغلب العاطفة على العقل ، ولعدم دراسة منهج الدعوة الاسلامية دراسة صحيحة ، فحدثت بعض الانحرافات ، وانتهزها الأعداء فرصة لمقاومة التيار الدينى ٠

والأزهر الشريف ، وهو الحفيظ على التراث الاسلامى ، تعليما ونشرا ، والمؤسسة الدينية التى أدت دورها بصدق وأمانة فى تاريخها الطويل ، حريص كل الحرص على التجاوب مع الأحداث ، وهداية الناس الى الصراط المستقيم ، فإلى جانب ما يقوم به من دراسات فى معاهده وكلياته ، وما يؤديه معلموه ودعاته من واجب التوعية والنصح والارشاد ، فى كل المجالات،

وبكل الوسائل ، يخرج للناس دراسات تتناول قضايا العصر ، وتبين معالم الطريق الصحيح للوصـــول الى الغاية فى أمن وسلام .

والكتاب الذى نقدمه الآن ، هو حلقة من سلسلة هذا النشاط ، يبين بعقلانية وموضوعية أفضل الطرق للعودة الى الدين ، على أساس من الحكمة التى أرشد الله أليها رســوله ، والتجارب المستفـادة من سيرة الدعـــاة والمصلحين .

وفضيلة الشيخ عطية صـقر ، مؤلف هذا الـكتاب ، تخصص فى الدعوة والارشاد ، دراسة وممارسة ، ولــه فى ذلك مؤلفات عدة ، من أبرزها : الدعوة الاسـلامية دعوة عالمية ، والدين العالمى ومنهج الدعـــوة اليه ، والاسلام فى مواجهة التحديات ، ومنهج الاصـــلاح فى دعوة محمد ﷺ .

وضح فى هذا الكتاب « المنهج السـليم الى صراط الله المستقيم » الخطوط الرئيسية التى يجب أن يسير عليها الدعاة الى العودة الى الدين ، وذلك من واقع دراسته المتخصصة ، واطلاعاته الواسعة ، وممارسته الطـويلة للدعوة بوسائلها المتعددة .

وركز فيه على وجوب فهم الدين فهما صحيحا ، عن طريق الدراسة العميقة ، والتلقى عن العلماء المختصين، وبين فيه الطريقة المثلى لإصلاح الأمــة على هدى من الكتاب والسنة ، وواجب كل قطاع من القطاعات التى تتولى مهمة الإصلاح ، وأهمية التعاون بين كل الأجهزة. وذلك من أجل تفادى العقبات التى تعوق المسيرة ، ومن أجل الوصول الى الهدف بسلام .

نرجو الله أن يوفق القراء للعمل بما فيه ، وأن يجعله شاهدا لنا فى القيام بواجب التبليغ ، إنه سميع مجيب .

الأمين العام لمجمع البحوث الاسلامية

أحمد السيد أحمد سعود

القاهرة فى ربيع الأول ١٤١٢ هـ

سبتمــبر ١٩٩١ م

مقدمة الكتاب (١)

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

أمـا بعـد :

فهذه كلمات تعبر عن تصـوري للوضع الحـاضر للمسلمين، وما أراه بشكل اجمالى من حلول لمشكلاتهم، ليست كلها ابتكارا واختراعا ، ولـكنها مسـتمدة من القانون الإلهى الذى وضعه الله سبحانه ، وبلغه رسوله الـكريم ، لإسعـاد البشرية فى المعـاش والمعـاد ، مع محاولة ربط النصوص بأحداث العصر ، والتعبير عنها بلغته ، بأسلوب مبسط يتناسب مع كل الأوساط .

أتقدم بها إبراء للذمة من واجب النصـح وأمـانة التبليغ ، راجيا من الله سبحانه أن يجعلها خالصة لوجهه الكريم ، إنه سميع مجيب .

عطيـة صـقر

القاهرة فى المحرم ١٤١٢ هـ
يوليو ١٩٩١ م

تمهـــــيد

من المعلوم أن كل إنسان له آماله وتطلعاته ، وأمانيه ورغباته ، تقوم جميعها ، مع اختلاف بسيط فى معانيها ، على تعلق القلب بشىء غير حاصل يكون فى تحققه خير تسر به النفس .

وهذا التعلق أمر ملازم للطبيعة البشرية ، فالانسان يشيب ويشيب معه الحرص والأمل كما ثبت فى الحديث الذى رواه مسلم فى صحيحه .

والشاعر الحكيم يقول :

وفى قبض كف الطفـل عند ولادة
دليل على الحرص المركب فى الحى
وفى بسطها عنـد الممات إشـارة
ألا فانظـروا أنى خـرجت بلا شى

وهذه التطلعات منها ما يستحيل تحققه أو يصـعب الى حد كبير ، ومنها ما يمكن تحققه بسهولة أو صعوبة معقولة ، وقد يعبر عن ذلك بألفاظ مناسبة .

فالأول يقال له التمنى أو الطمع ، والثانى يقال لـه

الرجاء ، ومن أدوات التعبير عن الأول فى الغالب «ليت» وعن الثانى « لعل » فى أحيان كثيرة ٠

ومن الأول قول الله تعالى على لسان الكفار يوم القيامة : « ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين »(١) ٠

وقول الشاعر :

ألا ليت الشباب يعود يوما
فأخبره بما فعل المشيب

ومن الثانى قوله تعالى : « وقال لفتيانه اجعلوا بضاعتهم فى رحالهم لعلهم يعرفونها إذا انقلبوا الى أهلهم لعلهم يرجعون » (٢) ٠

وقول الشاعر :

فقولا لها قولا رفيقا لعلها
سترحمنى من زفرة وعويل

والعقل لا يمنع هذه التطلعات ، ولا يدعو الى التخلص منها تخلصا تاما ، فهى لازمة لحياة الانسان، بها يتحرك ويسعى ويعمل وينهض ويتطور ، يقول الطغرائى :

---

(١) سورة الأنعام : ٢٨

(٢) سورة يوسف : ٦٢

أعلل النفس بالآمال أرقبها
ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل

والدين كذلك لا يحرم الأمل ولكن يدعو الى حسن استغلاله ، فطلب المستحيل عبث ، لأنه لا يتحقق إلا فى الأحلام عند النوم ، أو فى اليقظة التى يسرح فيها الخيال ويعيش فى لذة متوهمة كما يقول الشاعر :

منى إن تكن حقا تكن أحسن المنى
وإلا فقد عشنا بها زمنا رغدا

ومن أجل أن هذا النوع مرهق للأعصاب صارف عن الجد جاء النهى عنه .

فعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه أنه ﷺ خط لهم خطا مربعا ، أى رسم لهم شكل مربع ، وخط وسطه خطا ، وخط خطوطا الى جنب الخط ، وخط خطا خارجا ثم قال : « أتدرون ما هذا » ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم ، قال : « هذا الانسان » للخط الذى فى الوسط « وهذا الأجل » للخط المحيط به « وهذه الأعراض » للخطوط التى حوله « تنهشه ، إن أخطأه هذا نهشه هذا ، وذلك الأمل » ويعنى الخط الخارج [1] .

---

(١) رواه البخارى .

وهذا ما يعنيه قول القائل : الآمال تخترمها الآجال، أما الأمل المعقول والمتوقع الحصول ، وهو ما يغلب عليه اسم الرجاء فلا حرج فيه ، بل يحث عليه الدين إن كان في خير ، ولا يرضى بالتفريط أو الزهد فيه باسم القناعة بالقليل ما دام الكثير ممكنا لا يؤدى الى ضرر شخصى أو اجتماعى .

يقول النبى ﷺ « المؤمن لا يشبع من خير حتى يكون منتهاه الجنة »(١) ويقول : « المؤمن القوى خير وأحب الى الله من المؤمن الضعيف ، وفى كل خير ، احرص على ما ينفعك ، واستعن بالله ، ولا تعجز »(٢)

ويقول : « إذا سألتم الله الجنة فأعظموا الرغبة واسألوا الفردوس الأعلى ، فان الله لا يتعاظمه شىء »(٣) .

ويقول الشاعر :

ولم أر فى عيوب النـــاس عيبــا
كنقص القــادرين عــلى التمــام

فالطموح مطلوب ، وعلو الهمة يغرى بالسعى والكفاح للوصول الى مرتبة الشرف والكمال ، أو القرب منهـا

---

(١) رواه الترمذى وابن حبان .
(٢) رواه مسلم .
(٣) رواه البخارى ومسلم .

على الأقل ، ومحاولة تحقيق الآمال بدون ذلك هى سوء فهم لقانون الحياة وهداية الدين ، لأن هذا يعنى إلغاء قانون الأسباب والمسببات، ويعارض ما قررته النصوص من ترتب الجزاء على العمل ، وما خالف هذا القانون فهو بيد الله وحده ، الذى وضع السنن والقوانين الدينية والدنيوية ، حيث تكون المعجزة أو الكرامة لمن اصطفاهم من عباده .

قال تعالى : « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » (١) وقال : « ليس بأمانيكم ولا أمانى أهل الكتاب ، من يعمل سوءا يجز به ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيرا . ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا » (٢) .

وذلك فى معرض ادعاء كل فريق أن له الجنة .

وقال : « أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض ، أم نجعل المتقين كالفجار » (٣) وفى هذا المعنى يقول الحسن البصرى : ليس الايمان

(١) سورة الرعد : ١١
(٢) سورة النساء : ١٢٣ ، ١٢٤
(٣) سورة ص : ٢٨

بالتمنى ، ولكن ما وقر فى القلب وصدقه العمل ، وإن قوما خرجوا من الدنيا ولا عمل لهم وقالوا نحسن الظن بالله ، وكذبوا ، لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل .

إن الله سبحانه لو شاء لنصر المؤمنين على الكافرين دون جهاد ، لكنه مع ذلك شرع الجهاد فقال : « ذلك ، ولو يشاء الله لانتصر منهم ، ولكن ليبلو بعضكم ببعض » (١) وعندما قال : « وكان حقا علينا نصر المؤمنين » (٢) بين سبب ذلك بقوله : « يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم (٣) ونصر الله معناه الايمان به وتنفيذ أوامره .

ولا يصح أن يطلق على التعلق بالأمل دون عمل إلا اسم الطمع ، قال تعالى عن الكافرين : « أيطمع كل امرىء منهم أن يدخل جنة نعيم » (٤) وفى هذا المعنى يقول أبو العتاهية :

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها
إن السفينة لا تجرى على اليبس

(١) سورة محمد : ٤
(٢) سورة الروم : ٤٧
(٣) سورة محمد : ٦
(٤) سورة المعارج : ٣٨

ويقول شوقى :

وما نيـل المطـــالب بالتمنى
ولـكن تؤخـذ الدنيـا غـــــلابا

ويقول الفيلسوف «ثورو»: اذا كنت قد شيدت بأمانيك قصورا فى الهواء فلا تظن أن جهدك ضاع فان القصور لا تقوم إلا فى الهواء ، ولكن عليك أن تبنى لها أساسا ثابتا فى الأرض .

والملاحظ هنا أن العمل لا بد أن يكون بينه وبين الأمل والثواب تناسب ، فالأمل الكبير يقتضى عملا كبـيرا ، واذا كان العمل كبيرا كان الأجر عليه كبيرا ، والـكبر جهد مع نية ، قال تعالى : « لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهـدون فى سـبيل الله بأموالهم وأنفسهم فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلا وعد الله الحسنى ، وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما » (١) .

وربيعة بن كعب الأسلمى خادم رسول الله ﷺ لمـا سأله أن يكون رفيقه فى الجنة قال له : « فأعنى عـلى نفسك بكثرة السجود (٢) .

---

(١) سورة النساء : ٩٥
(٢) رواه مسلم .

ويقول الشاعر الحكيم :

بصرت بالـراحـة العليـا فـلم أرها

تنـال إلا على جسر من التعـــب

ويقول المتنبى :

على قـدر أهل العزم تأتى العزائم

وتأتى على قـدر الـكرام المـكارم

ويقول أيضا :

وإذا كـانت النفـــوس كـــبارا

تعبت فى مـــرادهـا الأجسـام

ويقول أبو فراس الحمدانى :

تهون علينـا فى المعـالى نفوســنا

ومن يخطب الحسناء لم يغله المهر

ويقول الامام الشافعى :

أأبيت سهـــران الدجى وتبيتـه

نوما وتبغـى بعــد ذاك لحــاقى

إن قانون العدل الإلهى يقضى بأن يكون الجزاء على قدر العمل ، قال تعالى : « ولكل درجات مما عملوا ،

وليوفيهم أعمالهم وهم لا يظلمون»(١) وقال : «ويؤت كل ذى فضل فضله » » (٢) .

ومع مراعاة العدل فى الجزاء ففضل الله كبير فى الثواب ، قد يبارك فى العمل القليل ويعين صاحبه على الوصول الى الهدف ، كما حدث فى إمداد الرسل ومن معهم بجند من عنده ، وقد يعطى الثواب الجزيل على العمل القليل الذى فيه إخلاص أو له نتائج كبيرة ، قال تعالى : « من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها » (٣) وقال : « للذين أحسنوا الحسنى وزيادة » (٤) وقال : « مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة ، والله يضاعف لمن يشاء ، والله واسع عليم » (٥) .

واذا كان الأمل من طبيعة الانسان ، والدين يقره ويرشد الى حسن استخدامه موضوعا ووسيلة ، فلا معنى لليأس والقنوط أبدا .

ومهما استحكمت الحلقات ، وكثرت العقبات ، فلا

---

(١) سورة الأحقاف : ١٩
(٢) سورة هـود : ٢
(٣) سورة الأنعام : ١٦٠
(٤) سورة يونس : ٥
(٥) سورة البقرة : ٢٦١

ينبغى أن يؤدى ذلك الى الاستسلام المطلق ، ما دام هناك إمكان لتحقيق الأمل ولو بأضعف نسبة ، والنصوص فى ذلك كثيرة ، يكفى منها قوله تعالى: « أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم ، مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ، ألا إن نصر الله قريب »(١) وقوله سبحانه « ولا تيأسوا من روح الله، إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون » (٢) وقوله: « ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون » (٣) وقوله: « فإن مع العسر يسرا ، إن مع العسر يسرا » (٤) .

والرسول ﷺ بدد اليأس الذى كان يخيم على نفوس الضعفاء الذين أسلموا بمكة ، وأحاط الاضطهاد بهم من كل جانب ، حين شكا اليه خباب بن الأرت ما بلغ بهم من الأذى ، وتعجل نصر الله بدعاء الرسول لهم ، فقال ، بعد أن ضرب لهم المثل بتحمل من سبقوهم : « والله ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء الى حضرموت ، لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ، ولكنكم

---

(١) سورة البقرة : ١١٤
(٢) سورة يوسف : ٨٧
(٣) سورة الحجر : ٥٦
(٤) سورة الشرح : ٥ ، ٦

تستعجلون »(١) وكان ﷺ يستعيذ بالله من العجز والكسل .

لا بد أن يعيش الأمل فى نفوسنا دائما ، حتى لا تقف حركة الحياة .

يقول عبيد بن الأبرص الشاعر الجاهلى :

صبر النفس عند كل ملم
إن فى الصبر حيلة المحتال
لا تضيقن بالأمور فقد
تكشف غماؤها بدون احتيال
ربما تجزع النفوس من الأمر
له فرجة كحل العقال

ويقول الشاعر المعاصر أبو القاسم الشابى :

اذا الشعب يوما أراد الحياة
« فنأمل » أن يستجيب القدر
ولا بد لليل أن ينجلى
ولا بد للقيد أن ينكسر
ومن لم يعانقه شوق الحياة
تبخر فى جوها واندثر

---

(١) رواه البخارى .

وقالت لى الأرض لما تساءلت
يا أم هل تكرهين البشر ؟
أبارك فى الناس أهل الطموح
ومن يستلذ ركوب الخطر
وألعن من لم يماش الزمان
ويقنع بالعيش عيش الحجر
هو الكون حى يحب الحياة
ويحتقر الميت المندثر
فلا الأفق يحضن ميت الطيور
ولا النحل يلثم ميت الزهر
ولولا أمومة قلبى الرءوم
لفرت عن الميت تلك الحفر
فويل لمن لم تشقه الحياة
من لعنة العدم المنتصر

أريد بهذا وأمثاله أن أحطم المقولة التى جرت على ألسنة الكثيرين ، ممن لاحقتهم الأزمات ، واشتدت عليهم الضغوط ، من الأفراد والجماعات ، وبعض الدول ، وهى « مفيش فايدة » وعززوها بمثل قوله تعالى : « ليس لها من دون الله كاشفة » (١) .

(١) سورة النجم : ٥٨

لا ، لا ينبغى أن نيأس وفينا عرق ينبض ، فلا يأس مع الحياة ، ولا حياة مع اليأس كما ذكر فى النصـوص السابقة .

وقد تنفرج الأزمة إن صدق العـزم ، فى استفراغ كل الجهود فى حلها ، مع الثقة برحمة الله الواسعة ، ليكون طعم النصر لذيذا ، يمحو مرارة المعاناة .

فـكم لله من لطـــف خفى
يدق خـفاه عن فهـم الـذكى
وكـم يسر أتى من بعـــد عسر
وفـــرج لوعـة القـلب الشجى
وكـم هـم تساء به صـباحـــا
فتعقبـه المسرة فى العشـــى
اذا ضـاقت بـك الأحـوال يوما
فثق بالـواحـد الأحد العلى

●●●

الوضـــع الحـــالى

بعد هذه المقدمة أقول :

إن أحدا من العقلاء لا يرضى أبدا عن الواقع الـذى تعيش فيه الأمة الاسلامية فى هذه الأيام ، لا من الناحية السياسية ،ولا من الناحية الاقتصادية ، بل ولا من الناحية الدينية عقيدة وسلوكا ، مما جعل الدول القوية تصنفها فتضع أكثر دولها فى قائمة الدول الناميـة أو العـالـم المتخلف .

ومن المعلوم ، أن الأمة هى مجموعة الأفراد الـذين يجمعهم شعور مشترك ، أو رابطة نفسية نتيجة عوامل ترجع الى الدين واللغة ، والجنس والتراث المشترك ، فى العادات والأخلاق ، والذكريات والمصـالح الاقتصادية المشتركة .

والاسلام هو العامل الأول فى تكوين الأمة الاسلامية ، التى تضم جميع المسلمين فى كل أنحاء العالم ، حتى من يخضعون لسلطان دولة غير إسلامية .

أما الدولة فهى الرابطة القانونية والسياسية ، التى تنشىء حقوقا وواجبات بينها وبين الأفراد ، تعيش فى

أرض واحدة ، ويحكمها دستور موحد تحت سلطان حاكم واحـد .

إن التناقض بين الاسلام كدين ، ومن ينتسبون اليه أفرادا أو جماعات أو دولا ، يدركه المسـلمون وغـير المسلمين ، فالمسلمون يعانون من قسـوة التجربة التى يمرون بها فى هذه الأيام ، وغـيرهم يرون التناقض الواضح بين ادعـاء المسـلمين أن دينهم دين القـوة والعظمة والتقدم ... وبين واقعهم أنفسهم .

مما جعل كثيرا أو أكثر الأجانب يصرحون بما تكنـه صدورهم ، من عدم الاقتناع بصدق الاسلام كدين ، لأن الدين الحق الذى هو وضع الله لا يمكن أن ينتج الضعف والتخلف ، فالله صادق فيما يقول ، حق فيما يعمـل ، ورسالاته رسالات إصلاح وخير وسعادة ، وهذه دعاية سيئة ضد الاسلام ، جنى عليه واقع المنتسبين اليه .

وإن كان المنصفون من الأجانب عنه يعتقدون صدقه، بدليل تجربته الرائعة فى عصوره الزاهية .

وقد ألف بعضهم فى ذلك كتبا أقروا فيها بفضله على الحضارات التى قبست منه ، ولكنهم مع ذلك يخشون عودته من جديد ، حتى لا يزاحمهم فى تنافسهم الدنيوى المسعور .

وعدم اقتناع المسلمين بواقعهم ، قدر مشترك ، يحس به الركنان الأساسيان لـكل دولة ، وهمـا : الشـعب والحكومة ، فالشعوب تقاسى وتعانى ، والحكومات تكد وتتعب لرفع المعاناة ، إما قياما بواجبها كسلطة قلدها الشعب زمامه ، وإما حفاظا على مركزها كقوة حاكمة ، وإما لأمر آخر .

والطرفان يتبادلان الاتهام ، كل يحاول إلقاء التبعة كلها على الآخر ، وقد تتطور الاتهامات ، فتتخذ أساليب عنيفة من كل منهما ، لا تجنى منها البلاد إلا مزيدا من الضعف والتخلف ، بتبديد القوى وتوجيهها الى الهدم بدل توجيهها الى البناء .

إن هذا الواقع المرير للمسلمين ، يتنـافى تمـاما مع القرار الإلهى الحكيم : « كنتـم خـير أمـة أخرجت للنـاس » (١) ، ذلك القرار الذى تأكد صدقه فترة من الزمان ، حين طبق المسلمون بحق كل المرشحات التى ادت الى صدوره : « تأمرون بالمعروف وتنهـون عن المنكر وتؤمنون بالله » أى تضعـون قواعد الإصـلاح وتقضون على عوامل الفساد باسم الله الذى آمنتم به .

---

(١) سورة آل عمران : ١١٠ .

والمؤمن بحكم إيمانه بالله وتصديقه بكلامه المنزل من عنده ، لا يمكنه أن يكذب قول الله الذى أصــدر قرار الخيرية للأمة الاسلامية ، فذلك كفر يخرج عن الإيمان، فهو سبحانه كما قال : « ومن أصدق من الله حديثا »(١) « ومن أصدق من الله قيلا » (٢) ٠

وفى الوقت نفسه لا يمكنه أن يكذب الواقع الذى يضغط على كل أحاسيسه ، ويشير اليه بأصــابع الاتهام ، فهو يعيش أيامه هذه ممزقا ، وفى صراع مرير ، يشده قرار الله مرة ، ويشده الواقع مرة أو مرات أخرى ٠

●●●

---

(١) سورة النساء : ٨٧
(٢) سورة النساء : ١٢٢

التفكير فى الحل

ومن هنا ملأ الأمل نفوس بعض الغيورين على الدين ، وقويت فيهم إرادة التغيير للملاءمة بين القرار والواقع ، عسى أن يعود الى الأمة الاسلامية مجدها الأول ، أو يقارب على الأقل ، ليخرجوا من دائرة الدول النامية أو المتخلفة ، ويمحوا هذه الوصمة التى يحاول الأعداء أن تظل باقية رمزا للإهانة ، أو دعوة الى الحاجة اليهم والدوران فى أفلاكهم •

وبدافع من هذا الأمل فكر العقلاء فى البحث عن سر هذا التناقض بين القرار والواقع ، فنادوا فى المسلمين واستنفروهم للجهاد بكل وسيلة ممكنة ضد هذا التخلف ، لأن الرضا به أو السكوت عليه قضاء على المجتمع الاسلامى بالموت البطىء أو السريع ، ومع الاتفاق على النفر العام لتحقيق الهدف ، اقترحت عدة وسائل للوصول اليه على ما هو موضح فى الجزء الأول من كتاب : « بيان للناس من الأزهر الشريف » وكانوا فى ذلك فريقين :

الفريق الأول : فتن بالغرب وحضارته رغبا أو رهبا ،

لأنه قوى متحضر ، لا يستغنى عنه الضعفاء المتخلفون، أو لأنه مستعمر له يعيش فى حماه ، أو كان يعيش ومازال متأثرا بما تشربه من مبادئه ، فرأى هـذا الفريق أن الأخذ بحضارة الغرب هو المخرج من تخلف المسلمين، ومن هذا المنطلق دعا الى عقد ندوات ومؤتمرات لمناقشة عوامل التخلف ، واقتراح الحلول المناسبة ، وكان المدعوون لهذه اللقاءات من كبار المثقفين والمصلحين الذين تجمعوا من أطراف العالم الاسلامى ، وانتهوا الى قرارات أو اقتراحات وتوصيات لوحظ عليها أمران :

أولهما أنها لم تأخذ طريقها الى التنفيذ على الرغم من تكرر هذه اللقاءات ومرور السنين الطوال على هذا المنوال ، وذلك إما لعدم وجود الإمكانات المساعدة ، وإما لعقبات وضغوط حالت دون التنفيذ ، سواء أكانت من الداخل ، أم من الخارج ، وإما لأسباب أخرى كرغبة بعض الانتهازيين فى بقـاء الوضع على ما هو عليه للاصطياد فى الماء العكر ، وتحقيق المصالح الشخصية ، لجماعة معينة أو دولة خاصة ، ولهذا ضاعت الجهود سدى مع ما أنفق عليها من أموال ، كان حسب المتحملين لها الإعلان بأنهم أسهموا فى حل المشكلات ، وهو شعار يتغنى به بعض من يريدون لفت الأنظار اليهم وكفى .

والأمر الثانى أن هذه القـــرارات ، أو الاقتراحات والتوصيات ، عندما أعلنت ، شغل النـــاس بها نقدا وتعليقا ، وبخاصة ممن لم يدعوا الى هذه اللقاءات ، ويحسون بأنهم ليسوا أقل كفاءة من المدعوين ، أو ممن دعوا وكانوا قـلة معـارضة ، لـكن رأى الأغلبية طغى عليها ، كما هو الشأن فى أمثال هذه الاجتماعات ، وهذا النقد عامل يضاف الى العوامل الأخرى ، التى تضعف من قوة النتائج ، التى انتهت اليها هذه اللقـــاءات ، وتقلل من شأنها ، وبقيت حـــبرا على ورق ، لم تأخذ طريقها الى التنفيذ ، وكلما مر الزمن جدت عـــوامل وأفكار وتيارات ، تضع بصمتها حتما على أى نقـــاش يدور فى لقـــاءات أخـرى ، تنتهى الى ما انتهت اليه اللقاءات الأولى ، وتعيش الأمة حياتها على هذا المنوال الملىء بالوعـود والشعـارات والإعـلانات وتغيـــير السلطات ، دون نتيجة عملية تأخذ بيـــد الشـــعوب المطحونة ، التى استولت عليها الوساوس والشكوك ، وكثرت فيها الأمراض النفسية والعصبية ، التى أسلمتهم الى اتخاذ وسائل غير مشروعة ، عسى أن تخفف عنهم ما يعانون .

ومن الملاحظ على كثير من هذه اللقاءات ، أن غالبية المشاركين فيها هم من الذين تثقفـــوا ثقـــافة أجنبية

بخصائصها المميزة لها ، وتحمسوا لها ، لدرجة التقديس الذى لا ينبغى - فى نظرهم - أن تمس بسوء ، فى الوقت الذى ضعفت فيه ثقافتهم الدينية الأصيلة ، زهدا فيها وعدم إيمان بفائدتها ، حيث لم يروا أثرها فى المجتمع الاسلامى ، مع تأثرهم بما يروجه الأعداء عنها ، ومن هنا كانت المناقشات مع ما أسفرت عنه ، بعيـــدة عن الجو الاسلامى النظيف .

ورجال العلم الدينى المهتمون بالإصلاح ، لم يدعوا الى هذه اللقاءات ، أو كان المدعوون اليها من القـلة بحيث تغلب عليهم أصـــوات الكثرة ، ولا يوجد أثـر لاقتراحاتهم ، وربما كان مجرد دعوتهم دفعا لما عساه يوجه الى الداعين من نقد عن إهمالهم ، ولئن كـــان العمل جاريا على الأخذ برأى لأغلبية ، فالمفروض أن يكون هناك تكافؤ بين الباحثين فى فهم مـا يبحثونه ، وفى حسن القصد، وبدون ذلك لن يكون هناك التقاء على المصلحة العامة . « كل حزب بما لديهم فرحون » (١) . وبهذه الصورة ظل الحال على ما هو عليه ، بل ازداد تخلف الدول الاسلامية فى مجموعها - لا فى جميعها - وكأن على عيون القائمين عليها أو المنتمين اليهـا ،

---

(١) سورة الروم : ٣٢

حجبا كثيفة تحول دون رؤية الحقيقة المرة ، التى يغص بتجرعها المسلمون .

والفريق الثانى من الباحثين فى الوضع الحاضر للأمة، رأى أن الإصلاح لا يكون إلا عن طريق العودة مرة أخرى، عودة كاملة إلى الدين ، وتقوية الصلة به علما وعملا ، وأطلق على ذلك اسم التيار الدينى أو الصحوة الدينية .

وهذا كلام حق لا مرية فيه ، يجب أن يؤمن به ويصدقه ويدعو اليه جميع المسلمين .

ذلك لأن الدين هو المنفذ الوحيد للخروج من الظلمات الى النور ، والعبور من الضلال الى الهدى ، وهـذه الحقيقة قالها كثيرون على مدى التاريخ قديمه وحديثه، حتى من قبل ظهور الاسلام كدين ختمت به الأديان ، وتكفى فى ذلك الإشارة الى مقولة الامـام مالك المتوفى سنة ١٧٩ هـ وهى : لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها . ومن قبله قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه : كنا أذل قوم فأعزنا الله بالاسلام ، فمهما نطلب العزة بغير ما أعزنا به أذلنا (١) ومن قبلهما قال ﷺ : « تركت فيكم ما إن تمسكتم به فلن تضلوا أبـدا ، كتاب الله وسنتى »(٢) وكل ذلك من وحى قوله تعالى :

---

(١) رواه الحاكم وصححه .
(٢) رواه الحاكم وصححه .

« لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين (١) وقوله : « إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم » (٢) وقوله : « ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شىء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين » (٣) .

والقرآن نفسه حلقة فى سلسلة الكتب السماوية، ورسالة الاسلام امتداد للرسالات الالهية ، التى جاءت تنبه البشر الى الأخطاء التى تنكبوا بها الطريق ، الذى رسمه الله تعالى لأبيهم آدم حين هبط من الجنة الى الأرض ، كما قال تعالى : «قال اهبطا منها جميعا بعضكم لبعض عدو فإما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ، ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى . قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا . قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى . وكذلك نجزى من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ولعذاب الآخرة أشد وأبقى » (٤) .

---

(١) سورة آل عمران : ١٦٤
(٢) سورة الاسراء : ٩
(٣) سورة النحل : ٨٩
(٤) سورة طه : ١٢٣ ــ ١٢٧

صـــيحات الإصـلاح

وعلى مدى التاريخ الاسلامى ، قامت صيحات تنادى بالعودة الى الدين ، علاجا لتخلف المسلمين ، وبرز فيها أعلام جاهدوا فى سبيلها على مستوى العالم الاسلامى كله ، أو على مستوى البلد الذى يعيش فيه أى عـلم منهم ، وألفت جمعيات تحمل شعار العودة الى الـدين بعناوين مختلفة، واهتمامات معينة، بأساليب متنوعة، وما تزال هذه الأصـوات تجلجل فى الآذان ، ويتردد صداها فى الآفاق ، وبخاصة عندما تجد ظروف ومشكلات يستعصى حلها ومواجهتها بالطرق العـادية ، التى لا يمكن أبدا أن ترقى الى مستوى الحلول التى وضعها الدين ، وهذه ـ بالتعبير الجارى ـ ظـاهرة صحية أن يطلب المسلمون علاج مشكلاتهم على هدى من الدين ، وبصرف النظر عن استخدام الشعارات الدينية فى ظروف معينة يعلم الله ما يقصد منها ـ فان الذى ألجأهم الى ذلك هو ما شهدوه من إفلاس النظم الأجنبية فى رفـع مستواهم وتحقيق شخصيتهم الاسلامية الـكريمة .

إن هذه النداءات تصحيح للمسيرة الاسـلاميـة التى

انحرفت عن القصد ، وهى بمثابة التوبة والرجوع الى الله ، ومن كرم الله سبحانه أنه يقبل التائبين اليه بصدق، كما قال : «وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى (١) وكما جاء فى الحديث «كل ابن آدم خطـاء، وخير الخطائين التوابون » (٢) .

●●●

(١) سورة طه : ٨٢

(٢) رواه الترمذى وابن ماجه والحاكم وصححه .

نقـــد عـــام

وإذا كنا نحيى هذا الاتجـاه لحل مشكـلاتنا ، فان الملاحظ أن النداءات والشعارات تغلب عليها العاطفـة الجياشة ، أكثر مما يسيطر عليها العقل المتأنى المتزن ٠

وهؤلاء العاطفيون لهم اتجاهان فى الاصلاح ، اتجاه يرى أن العودة الى الدين لا تكون إلا بالقضاء على كل العناصر الفاسدة - فى رأيهم - فهى التى تقود الأمة فى الوقت الحاضر ، وباستعمال كل الأساليب العنيفة ، التى تطهر المجتمع منهم ، وممن يتعاون معهم ، واتجـــاه آخر اكتفى بترديد الشعارات ، والبكاء على المــاضى ، والتغنى بالأمجاد الأولى ، واستثارة العناصر المضغوط عليها بضواغط شـديدة ، لتنفس عن نفسهـا بالمناداة بالتغيير على أساس الدين ، حتى لا تتهم - إن نادت بشعار آخر - أنها تريد قلب نظام الحكم ، فتطبق عليها القوانين التى تذوق منها الأمرين ٠

ولم يتقدم أصحاب هذا الاتجاه بمنهج مدروس،يعرف به الطريق السليـم للعودة الى الـدين ، وتحكيمه فى المجتمع ، ذلك الطريق الذى لابد أن تراعى فيه بدقة

وحذر الأشواك الموضوعة فيه ، والعقبات التى تعوق المسيرة ، ولذلك مارسوا - بسبب عدم هذه المراعاة - أعمالا لا تمت فى الحقيقة الى القضية بصلة ٠

وكلما نابتهم نائبة استدروا العطف من المطحونين ، أو من الشامتين المتربصين ، وزاد تمسكهم بالممارسة التى اختاروها للوصول الى غرضهم ٠

يجب أن نعلم أن الموقف السلبى بجوار المريض القائم على الاكتفاء بدموع تذرف عليه ، وأنات ترن فى أذنيه ، ودعوات تردد من حواليه ، اعتقادا أنها هى التى تشفى علته ، وتستنزل الدواء من السماء ، كمائدة الحواريين ، أصحاب عيسى عليه السلام ، هذا الموقف موقف غير سليم ، فبدون البحث عن الطبيب المعالج ، وإحضار الدواء المناسب ، وتناوله على الوجه الصحيح ، سيظل المريض يئن ويشكو ، بل قد يعجل بالقضاء عليه - إن لم يكن عون من الله - وذلك نتيجة إهمال الجهلاء الواهمين ٠

ومثل ذلك الوقوف عند حد التغنى بأمجاد الماضى ، والأسف على العهود الغابرة ، التى ولت ولم ينعم الحاضر بها ، وأذكر هؤلاء بقول الشاعر :

لسنا وإن أحسابنا كـــرمت
يـــوما عـلى الآبـاء نتـــكل
نبنى كمـا كـانت أوائلنـــا
تبنى ونفعـل مثل ما فعـلوا

وقـــول الآخـر :

لـئن فخـرت بآبـاء ذوى حسب
لقد صدقت ولـكن بئس ما ولدوا

إن كلا الاتجاهين ، العنف والتراخى ، بعيد عـن الطريق الصحيح ، فى الوقت الذى خلق جوا من العـداء، أو عدم التعاطف بين فـريق المتجهين للحـل الدينى ، وفريق المعجبين بالغرب والثقافة العصرية ، وهؤلاء مع القائمين بالأمر يشكلون جبهة معارضة قوية فى عـددها وعدتها ، يقف الطـرف الآخر منهـا حائرا ، لا يتقـدم خطوة لها قيمتها على طـريق الاصلاح ، ولا يسلم من المنغصات بأى لون من ألوانها وما أكثرها .. وينضم الى هؤلاء المعارضين جبروت الاستعمار ، الـذى لا يرضى أبدا أن تقوم صحوة دينية فى البـلاد الاسلامية ، التى له سلطان عليها بأية صورة من الصور ، لأنها تقف حجر عثرة فى طريق تحقيق المآرب ، التى يخطط لها من زمن بعيد ، للثأر من القوة الاسلامية ، أو من الدين بوجـه عام ، من أجل التمكين للعلمانية والمادية الملحدة .

الذين ينادون بالعودة الى الدين عن طريق العنف ، أو الاكتفاء بترديد الشعارات ، مخطئون فى هذه الوسيلة ، ولن يصلوا أبدا الى ما يريدون • فكل حركة إصلاحية ـ أيا كانت ـ لا بد لها من قيادة رشيدة حكيمة ومن تخطيط دقيق يضعه فاهمون مجربون ، ولا تترك للعواطف وحدها ، ولا لمن تقل معرفتهم بالدين الذى يدعون اليه ، والأسلوب الصحيح لهذه الدعوة ، كما يقول القائل :

ومن العجائب والعجائب جمة
قرب الشفاء وما اليه وصول
كالعيس فى البيداء يقتلها الظما
والماء فوق ظهورها محمول

عندما أرسل الله الرسل لهداية البشرية لم يتركهم وحدهم يتصرفون باجتهادهم فقط ، بل أمدهم بالإرشاد الى الطريق الصحيح الذى تنجح به دعوتهم ، وكم من الآيات فى القرآن الكريم تحث الرسول ﷺ وصحبه على الصبر والتحمل ، وهو يدعو فى مكة ، وأوائل عهده بالمدينة ، لأن أسلوب الانتصاف من الظالمين لم تتهيأ ظروفه بعد ، قال تعالى : « واصبر على ما يقولون

واهجرهم هجرا جميلا» (١) « فاصبر إن وعد الله حق ولا يستخفنك الـذين لا يوقنون » (٢) « لتبـلون فى أموالكم وأنفسكم ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الـذين أشركوا أذى كـثيرا ، وان تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور (٣) ٠

وفى بيان منهج الاصلاح فى دعوة النبى ﷺ وضعت رسالة طبعت منذ عدة سنوات بمعرفة المجلس الأعلـى للشئون الاسلاميـة ، بوزارة الأوقاف المصرية ، دارت حول شرح الآية الثانية من سورة الجمعة ، والآية رقم ١٦٤ من سورة آل عمران وقد مر ذكرهما ٠

وقد وجـه القرآن الكريم رسـول الله ﷺ وصحبه إلى الاهتمام بالأساس الأول للنهضة ، وهـو العقيدة والقيم « الإيديولوجيات » التى تدفع إلى العمل ، للوصول إلى الهدف المنشود ٠٠ ولذلك ظل الرسـول الكريم يدعو فى مكة ثلاثـة عشر عاما ، إلى توحيـد الله والإيمان بالحياة الآخـرة ، أى إلى الانطلاق من منطلق واحـد ، والعمل

(١) سورة المزمل : ١٠
(٢) سـورة الروم : ٦٠
(٣) سـورة آل عمران : ١٨٦

لهدف واحد ، مع الإحساس بالمسئولية ، ومتابعة النشاط لتقويم الحصيلة ، ومقابلتها بما تستحقه ، وذلك فى يوم العدل والإنصاف ، يوم يقوم الناس لرب العالمين ، المنطلق واحد ، والهدف واحد ، والرقابة محكمة ، والمسئولية مقررة ، والجزاء لامحالة منه .



التغـــيير بالقــوة

إن التغيير بالقوة والعنف دون تخطيط سليـم ، هو طابع الثورات ، وسمة الانقلابات ، والى جانب ما قـد يراق فيه من دماء ، وما يؤدى اليه من تعطيل الانتاج، وتوقف عجلة المسيرة ـ عمره قصير ، كالنار تشتعل فى الهشيم ، فتكبر وتعظم ، وتلفت الأنظار اليها ساعة أو أكثر ، ثم لا تلبث أن تخمد ولا تخلف وراءها إلا الرماد والدمار .

والانقلاب الثورى لا يقوم به أفراد أو جماعات ، لا تملك العدة اللازمة لمعركة هى معركة المصير ، كما يطلق عليها حديثا ، فإما أن نـكون أو لا نـكون ، بل لا بد لنجاحها ، من قوة على أتـم الاستعداد لمواجهـة كـل الاحتمالات ، كالجيش فى البلاد المنظمة ، أو النقابات الكبرى الموحـدة ، أو ما يطلق عليه اسـم « الميليشيا المسلحة » وكالعصبية القبلية ، التى تدين بالولاء التام لشيخ القبيلة ورئيسها ، بحيث يكون القائمون بها على قلب رجل واحد ، يصمدون حتى النهاية ، فإن لم يكن الانقلاب الثورى بهـذا الشكل كان كالحرب الأهليـــة

- إن لم يكن إياها - وكانت فتنة تراق فيها دماء بريئة، وكانت الفرصة سانحة لتدخل الأيدى الغريبة ، وإمداد هذه الفتنة بما يطيل أمد اشتعال نارها ، لتسفر عن ضعف ينهك قوى الثائرين ، وذلك ما يبغيه المتربصون.

وبمناسبة العزم المصمم على التغيير والصمود فى المعركة الى النهاية ، أذكر مثلا - حقيقيا كان أوخياليا - وهو أن بعض المناطق فى دولة من الدول تذمرت من وجود ناقة يملكها الحاكم العام ، لأنها تتلف الزرع الذى تقوم عليه حياتهم ، وهم لا يستطيعون مسها بسوء خوفا من بطش الحاكم فصمموا على إرسال وفد منهم لمقابلته فى مقره ، الذى يبعد كثيرا عن هذه المنطقة ، ليرفعوا اليه شكواهم ، فاختاروا مائة منهم يتحركون فى الصباح الباكر ، فلم يجتمع منهم لبدء المسيرة إلا نصف هذا العدد ، وفى أثناء الطريق تسلل البعض وانتهى العدد الى عشرة وهم على باب القصر الأميرى ، ولما أذن لهم بالدخول وقفوا صفا واحدا أمام الحاكم ، فطلب أن يتقدم منهم واحد يتكلم بالنيابة عنهم ، فجبنوا جميعا ولم يتقدم أحد ، ولما أحس كبيرهم أن نتيجة الجبن قد تكون القتل أو التنكيل بالجميع ، تقدم هو خطوة ثم قال : جئنا لنشكر عظمتكم من كل قلوبنا ، على تشريف منطقتنا ، باختيارها لترعى فيها ناقتكم ، ولما كنا نخشى

ـ بعد عمر طويل ـ أن يصيبها سوء أحببنا أن يدوم لنا هذا الشرف ، فنلتمس من كرمكم العظيم ، وحبكم للرعية ، أن ترسلوا لنا جملا يعيش مع الناقة ، لعلها ترزق ببعير نسعد به كما سعدنا بأمه ، فما كان من الحاكم الا أن شكرهم، ولبى رغبتهم، وأمر بارسال جمل يعيش مع الناقة ، ولما انصرفوا دهش الوفد من رئيسهم كيف يتصرف هذا التصرف ، فقال لهم : اتفقنا على أن يكون الوفد مائة فانتهى الى عشرة ، فعقابا لكم على جبنكم جئتكم بجمل أخر مع الناقة • وهكذا يكون الجبن والنفاق وعدم الإخلاص فى التغيير مضاعفا للمصيبة ، بدل أن يزيلها أو يخفف منها •

إن الفلول المتحمسة للتغيير الثورى ، اعتمادا على العاطفة فقط ، وإطلاق الشعار لا غير ، قلما تكون مستعدة للتضحية ، فكثير منهم لم ينضج عقله بمقدار ما نضجت عاطفته ، التى يثيرها أمانى عذاب وآمال براقة ، يخدع بها الشباب •

وقد يكون الحرص على المصلحة الخاصة من وراء هذه الثورة أكبر من الحرص على المصلحة العامة ، وبسبب هذا الشعور المتحمس كثيرا ما يدب الخلاف بينهم أثناء المعركة ، ويتنازعون على اقتسام الغنائم المادية أو

الأدبيـة المنتظرة ، فيفتر الحماس وتهـدأ العاصفة ، أو تنشق جماعة تتخذ أسلوبا آخر ، فتتوزع الجهود وتبعد الغاية ، وتكثر الضحايا .

إن بعض العاطفيين يود لو يقوم بالتضحيـة جماعة بدلهم ، ويقتصر دورهم هم على إثارة الحماس وإلهاب المشاعر ، بل يركزون على فئة من الناس تتقدم الصفوف وتقود المعركة الفعلية ، ولا يهمهم أن تراق دماؤها ، في الوقت الذى يتوارون فيه عند اللزوم ـ وباستطلاع خبيئة بعضهم ، اتضح أن خطتهم تستهدف القضاء على بعض الجماعات كجزء من الإطاحة بالرءوس الحاكمة ، وكثير من أصحـاب هـذه الفكرة العنيفة منبثون فى بلاد إسلامية متبنين الدعوة إليها ، كمتنفس للوضع القاسى الذى ألجئوا إليه فى السنوات الأخيرة ، وشعارهم فيها «علىَّ وعلى أعـدائى» .

●●●

التغيير السلمى

تغيير الوضع الحاضر للمسلمين بطريق سلمى لم يتفق القائلون به على منهج واحد ـ إن كانوا قد وضعوا مناهج ـ وهم فى جملتهم نوعيتان رئيسيتان :

الأولى :

نوعية تتجه اتجاها سياسيا ، أو بمعنى آخر « تسييس الحكم » وأقصد به أنها تريد إصلاح المجتمع عن طريق إصلاح القمة والإدارة ونظام الحكم ، وذلك عن طريق تحكيم الدستور الاسلامى وما يلزمه من مناصب يرون ـ أو يرى الكثير منهم ـ أنهم هم الجديرون بها ، لأن الفساد فى رأيهم أساسه الحكام ، والدستور الوضعى الذى يحكمون به ، وهؤلاء منقسمون على أنفسهم فى التشريع المأخوذ من القرآن والسنة واجتهادات الأولين.

فبعضهم يميل الى ما يسمى بالأصالة ، أى الأخذ بالمنهج القديم فى التشريع ، لأنه الأصل الذى بنيت على أساسه الدولة الاسلامية الأولى ، بحضارتها وعظمتها المثالية ، التى يتمنون استعادة أمجادها ، وسار السلف

على هذا المنهج فى اجتهاداتهم الفقهـية ، والتمسـك بالنص والصور التطبيقية الأولى ، وبعضهم يميل الى ما يسمى بالمعاصرة فى التشريع ، ويحاول التوفيق بين النصوص ومتغيرات العصر ، بحكم أن الدين صـالح للتطبيق فى كل زمان ومكان ، ولا بد أن يكون فيه حكم لكل حادثة يتنفس عنها التطور ، وما أكثر ما يجد من الحوادث التى لم تكن فى العصور السابقة ، وهم يميلون الى تطويع النص والتأثر بمذهب المعتزلة والعقليين، الذين قد يفرطون فيقدمون حكم العقل على النص ، أو محاولة التلاؤم بينهمـا ولو مع التعسـف والتـكلف ، متأثرين فى ذلك بمظـاهر المدنية الحديثـة ، مهتمـين بالاقتباس منها أو الحياد معها على الأقل نظرا للتشابك الشديد بين النظم وسرعة تلاقح الأفـكار ، بعد سهولة الاتصال بوسائله المختلفة .

الثـانية :

نوعية لا تهتم بالجانب السياسى ، بل تريد الاصلاح عن طريق القـاعدة ، وتركز فى الدعـوة على بعض المسائل ، لإصلاح العقائد وتصحيح العبـادة وتقويم السلوك ، ويشتد نشاطها بين أفراد الشعب ، دون اهتمام كبير بالسلطات الحاكمة كالنوعية الأولى ، وإن كـان

الجميع فى نظرها سواء ، فكل مسلم - أيا كان مركزه فى المجتمع - مطالب بصحة العقيدة والعبادة والسلوك .

ومن أجل هذا تكونت جمعيات ، لكل منها اهتمام خاص بناحية من نواحى الإصلاح فى هذا الإطار ، فمنها ما يهتم بتجريد التوحيد لله ونفى مظاهر الشرك ، كالحلف بغير الله والتوسل بالأولياء والتبرك بالأضرحة ، وعدم وصف أحد بالسيادة حتى لو كان الرسول ﷺ ، فالله هو السيد وحده .. ومنها ما يهتم بفروع الشريعة ، وبخاصة السنن والمندوبات ، خشية اندثارها أو التهاون فيها ، كإعفاء اللحية وإرخاء العذبة ، وإحفاء الشارب ، وتقصير الملابس واختيار اللون الأبيض .

ومن هؤلاء من كون جمعية أو تشكيلا أيا كان اسمه - من أجل الدعوة الى استعمال الخشبتين « السواك والخلال » من أجل نظافة الأسنان ، ففيهما الغناء عن الأدوات والمستحضرات الحديثة .

وقد يتنفس اتجاه هذه النوعية - على اختلاف مجالات نشاطها - عن تشكيلات بأسماء واهتمامات أخرى ، يرون فيها امتصاصا للنقمة على الوضع المتردى للأمة الاسلامية ، بالقدر الذى يستطيعون به التنفيس عن سخطهم على انحراف المجتمع عن القصد .

ونحن لا نعارض هؤلاء ولا هؤلاء ، ونؤكد وجوب تصحيح العقيدة والحفاظ على سنة رسول الله ﷺ ، لكن لا نوافق على وقوفهم عند هذا الحد من الاهتمام بالدين ، فهناك مسائل أخرى تستدعى الاهتمام الكبير فى الوقت الحاضر ، كما لا نوافق على التعصب المفرط الذى قد يتطور الى فوران ينتج آثارا ضارة ، والى فرض هذا السلوك بوسيلة أو بأخرى على الغير ، والحكم على المخالف بالفسق أو الكفر ، الأمر الذى يؤدى الى بعثرة الجهود ، وضياع الأموال ، وتفريق الصفوف ، والانشغال عن القضايا الضاغطة ، وبخاصة إذا كانت هناك أيد خفية تحرك وتمول ، سواء من الأعداء ، أو من المسلمين أنفسهم ، لأسباب لا داعى لإثارتها ، وقد يعرفها كثير من أولى الألباب .

وبهذه المناسبة أقول : إن بعض الذين ينادون بالاهتمام بالقضايا المعاصرة ، يشتطون فى هذا الاتجاه، بما يقرب من قطع العلاقة بالماضى ، وعدم الاهتمام بالقضايا التاريخية الأولى ، التى خلقتها الظروف ، وألفت فيها كتب تدرس باهتمام فى الأوساط العلمية .

وليكن معلوما أن أكثر المشكلات المعاصرة لها جذور تاريخية ، وهى انبعاث جديد لقضايا العصور السابقة،

ومن أجل التمكن من معالجة الحديث ينبغى الاطلاع على علاج القديم للافادة منه ، لا لمجرد الترف الذهنى، فالوقت فى ظروفنا الحاضرة لا يتسع لذلك .

والمقصود من الدراسة القديمة هو العبرة ، وسهولة العثور على أسباب المشكلات الحديثة ، وطرق علاجها، ومن أجل هذا كان قصص القرآن لأحوال السابقين ، كما قال سبحانه : « لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب » (١) .

إن التغيير السلمى يحتاج الى اعداد طويل ، واذا نجح بقى أثره مدة طويلة ، على عكس التغيير الثورى المتعجل ،الذى لا دوام له ولا استقرار فى غالب الأحيان، وذلك الى جانب أن التغيير المتعجل فى ظل الأوضاع الحاضرة - ولا بد من التركيز على الأوضاع الحاضرة - يكون عملا غير دستورى ، لأن أكثر الدول الاسلامية تحكم الآن بدساتير وقوانين منقولة عمن يختلفون عنا ، عقيدة وسلوكا وهدفا وظروفا ، وليست كلها متفقة مع الدين ، حيث يلاحظ أنها مهتمة بالحفاظ على النظام القائم على علاته .

(١) سورة يوسف : ١١١

وكل تغيير غير دستورى سيلاقى مقاومة عنيفة ، واذا فشل كانت خسارته فادحة ، فلابد من التصرف الحكيم فى حدود هذه الدساتير حتى تغير أصلا ، وذلك يحتاج الى حكمة كبيرة فى الدعوة ، أما التغيير السلمى فيمكن أن يكون عند الفهم الدقيق ، تغييرا دستوريا نابعا من إرادة الأمة بعد الإعداد السليم ، الذى سنتحدث عنه فيما بعد .

●●●

الأســــوة الحسنة

لقد عاش النبى ﷺ حياته قبل الرسالة مواطنا عاديا، ليس له سلطان ، حائرا يفكر فى الطريق الذى يسلـكه ليهدى قومه ، ويخرجهم من ظلمات الشرك وعـادات الجاهلية ، كما قال تعالى : « ووجدك ضالا فهدى »(١) علـى بعض الأقوال فى تفسير الضلالة بالحيرة وعـدم الاهتداء الى طريق الاصلاح .

ولو نادى بالإصلاح كفرد عادى لرفض ، وذلك لعدم وجود المقومات اللازمة لهذه الحركة عنده ، فهو على الأقل فقير فى المال ، وليس له سلطان يمكنه من القيـام بالإصلاح ، فهداه الله وأيده بالوحى والرسالة ، ومهـد لقبول دعوته بسلوكه الرشيد الذى شهدوا له فيه بالصدق والأمانة ، كما يدل عليه قوله تعالى : « فقـد لبثت فيكم عمرا من قبله أفلا تعقلون (٢) وذلك عندما طلب أهـل مكة منه أن يغير بعض آيات القرآن ، كما مهـد لقبول دعوته بانتزاع الشهادة منهم أنه مخلص وحريص عـلى مصلحة قومه ، حيث ناداهم بقوله « أرأيتكم لو أخبرتكم

---

(١) سورة الضحى : ٧
(٢) سورة يونس : ١٦

أن خيلا بالوادى تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقى » ؟ قالوا : نعم ما جربنا عليك كذبا ، قال « فإنى رسول الله إليكم خاصة والى الناس كافة » وفى رواية « فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد » (١) .

وقد أعطاه الله معجزة كانت سلاحه القوى فى التحدى، يحملهم على التصديق بأنه رسول من عند الله ، وليس ثائرا يبغى عرضا من أعراض الدنيا التى جربوا إغراءه بها ، فأبى كل الإباء .

ومن هنا كان صوته جديرا بأن يسمعه ويتأثر به العقلاء المنصفون المتحررون من سلطان التقليد ، وعصبية الجاه والسلطان ، وفى الوقت نفسه كان الله معه بالحماية عند الاقتضاء ، قال تعالى : « يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك ، وإن لم تفعل فما بلغت رسالته ، والله يعصمك من الناس » (٢) وقال « فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين ، إنا كفيناك المستهزئين » (٣) .

ومع كل هذه العوامل من قوة الحجة واطمئنانه لدفاع الله عنه ، لم يستطع أن يمس الأصنام بسوء من

---

(١) رواه البخارى .
(٢) سورة المائدة : ٦٧
(٣) سورة الحجر : ٩٤ ، ٩٥

العمل ، بل لم يسلم من أذى المشركين حين تعرض لها بمجرد القول فى بيان حقيقتها ، ليتنبه العابدون لها أنها لا تنفع ولا تضر ، ولا تسمع ولا تبصر ، ولا تغنى من الحق شيئا ، فهو وحده مع القلة من المؤمنين بمكة لا يمكنهم أن يقوموا بالتغيير الجذرى الشامل لمجتمع مكة ، بل نرى أن الصلاة لما فرضت بمكة كان الرسول ﷺ يؤديها عند الكعبة ، والأصنام من حوله لا يستطيع أن يمد يده اليها بأذى ، مكتفيا بالإنكار باللسان الحكيم ، والقلب الكبير ، متوجها الى الله وحده بالعبادة وسط هذا الجو الكئيب .

ولما هاجر الى المدينة وقامت الدولة الاسلامية بمقوماتها الأساسية ، أرضا وشعبا ودستورا وحكومة ، ثم جاء مكة لأداء عمرة القضية حسب صلح الحديبية ، طاف حول الكعبة والأصنام قائمة ، لكن لما جاء مكة بعد ثمان سنوات من الهجرة فاتحا منصورا كان السلطان كله فى يده ، والقوة على أتم استعداد للتضحية ، فهوت الأصنام منكوسة أمام قضيب فى يده يصرعها بالقوة المنبعثة من الايمان بالحق ورفع شعاره « وقل جاء الحق وزهق الباطل ، إن الباطل كان زهوقا » (١) .

---

(١) سورة الاسراء : ٨١

إن حاملى لواء التحرير بالعنف كثير منهم لم تتضح له الصورة الصحيحة للدين ، الـذى يثورون من أجـل التمكين له ، وعدم وضوح الصورة لأى مشروع دينى أو دنيوى خطـأ كـبير ، حيث يجب أن يعمـل الحسـاب للظروف ، وأن تقدر عواقب العنف ، وتدرس فى هـذا المقام سيرة النبى ﷺ فى الدعوة ، وهو القدوة الحسنة لنا فى كل ما يهمنا .

قال تعالى : « لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكـر الله كثيرا » (١) حيث قال له رب العزة سبحانه : « ادع الى سبيل ربك بالحـكمة والموعظـة الحسـنة وجادلهـم بالتى هى أحسن » (٢) وهى آية من سورة نزلت بمكة ، تطبق فى مجتمع يسود فيه الكفر ، ويتحـكم فيـه الجهل ، لابد لإصلاحه من استعمال الحكمة ، فكيف بالمجتمع المؤمن الذى يراد إصلاح ما دخله من فساد ؟ إن ذلك يحتاج مع الحكمة الى الموعظة الحسنة .

والمتشددون فى حكمهم على مجتمعات المسلمين بالكفر

---

(١) سورة الأحزاب : ٢١

(٢) سورة النحل : ١٢٥

قاموا بأساليب بعيدة عن الحكمة ، التى وجه الله اليها من هو قدوة الجميع فى معاملته مع الكفار .

إن الانطلاق فى إصلاح المجتمعات الاسلامية من الجزم بكفرها لمجرد وجود بعض السلبيات التى لا يوافق عليها الدين - انطلاق خطأ ، لأن كل مجتمع على مدى التاريخ الطويل فيه سلبيات يمكن اصلاحها بوسيلة سلمية ، من أجل التقليل منها بالقدر المستطاع ، لأن محوها بالكلية حلم لا يتحقق ، لأنه يناقض الطبيعة البشرية التى فيها الخطأ والصواب .

وبقدر ما تقل السلبيات يكون المجتمع أقرب الى الكمال - وممارسة العلاج بالأسلوب العنيف البعيد عن هدى الرسول ﷺ ممارسة جانبت الصواب .

وبهذه المناسبة أذكر ما رواه التاريخ من غيرة بعض المسلمين على المخالفات التى ترتكب فى المجتمع ، ومطالبة المسئولين بإزالتها تماما ، ليكون المجتمع سليما خالصا من كل سوء .

ذكر الطبرى فى تفسيره ، ونقله ابن كثير فى تفسير قوله تعالى : « إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر

عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريما » (١) أن بعض المصريين شكوا الى عبد الله بن عمرو بن العاص ـ وكان عمرو واليا على مصر ـ أن بعض أمور الدين لا تطبق فى الشعب ، وطلبوا رفع الشكوى الى أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب رضى الله عنه ، فلما ذهبوا الى المدينة سأل عمر واحدا منهم : هل قرأت القرآن كله ؟ قال : نعم ، قال : هل عملت بكل ما فيه ؟ قال : لا ، وكذلك قال الآخرون . فقال عمر : ثكلت عمر أمه ، أتكلفونه أن يقيم الناس على كتاب الله ؟ قد علم ربنا أن ستكون لنا سيئات ، قال تعالى ـ وتلا الآية السابقة ـ ونهرهم وأمرهم أن يكتموا ذلك الخبر ، وإلا عاقبهم .

لا أطيل على قارىء هذه الرسالة بإيراد النصوص التى تتصل بالعلاقة بين الشعب والمسئولين بخصوص إصلاح الأخطاء ، فهى مستوفاة فى الجزء الأول من كتاب « بيان للناس من الأزهر الشريف » وحسبى أن أضع أمامه هذه النقول :

١ ـ عن عوف بن مالك الأشجعى ، أن النبى ﷺ قال: « خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم ، وتصلون عليهم ويصلون عليكم ـ المراد بالصلاة الدعاء ـ وشرار

---

(١) سورة النساء : ٣١

أئمتكم الـذين تبغضونهم ويبغضونكـم ، وتلعنونهـم ويلعنونكم » قال : قلنا يا رسول الله أفلا ننابذهم عنـد ذلك ؟ قال : « لا ، ما أقاموا فيكم الصلاة ، ألا من ولى عليه وال فرآه يأتى شيئا من معصية الله فليكره ما يأتى من معصية الله ، ولا ينزعن يداً من طاعة » (١) والنبذ هو الإعلان بالقتال ، كما فى قوله تعالى : « وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ اليهم على سواء » (٢) .

٢ ـ عن حذيفة بن اليمان أن النبى ﷺ قال: « يكون بعدى أئمة لا يهتدون بهـديى ، ولا يستنون بسنتى ، وسيقوم منكم رجال قلوبهم قلوب الشياطين فى جثمان إنس » قال : قلت يا رسول الله كيف أصـنع إن أدركت ذلك ؟ قال : « تسمع وتطيع وإن ضرب ظهرك وأخـذ مالك فاسمع وأطع » (٣) ذلك لأنها ثورة مغرضة ، أى فتنة ، والواجب هو عدم الدخول فيها .

٣ ـ عن عبادة بن الصامت قال : بايعنا رسول الله ﷺ عـلى السمع والطاعـة فى منشطنا ومـكرهنا وعسرنا ويسرنا ، وأثرة علينا ، وألا ننازع الأمر أهله ، إلا أن

---

(١) رواه مسلم وأحمد .
(٢) سورة الأنفال : ٥٨
(٣) رواه مسلم وأحمد .

تروا كفرا بواحا عندكم فيه من الله برهان » (١) وفى رواية « كفراً براحا » والكفر البراح - بضم الباء - هو الظاهر الواضح ، وأصل البراح الأرض القفر التى لا أنيس فيها ولا بناء .

وجاء فى رواية الطبرانى « كفرا صراحا » بصاد مضمومة ثم راء .

يقول شراح الأحاديث : لا تجوز منابذة الأئمة بالسيف ما كانوا مقيمين للصلاة . وفى قول الرسول : « وإن ضرب ظهرك » دليل على وجوب الطاعة للأمراء وإن بلغوا فى العسف والجور الى حد ضرب الرعية وأخذ أموالهم ، فيكون مخصصا لعموم قوله تعالى : « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم »(٢) وقوله : « وجزاء سيئة سيئة مثلها » (٣) .

يقول ابن حجر فى « فتح البارى » : وقد أجمع الفقهاء على وجوب طاعة السلطان المتغلب والجهاد معه ، وأن طاعته خير من الخروج عليه ، لما فى ذلك من حقن

---

(١) رواه البخارى ومسلم .
(٢) سورة البقرة : ٩٤
(٣) سورة الشورى : ٤٠

الدماء ، وتسكين الدهماء ، ولم يستثنوا من ذلك إلا اذا وقع من السلطان الكفر الصريح ، فلا تجوز طاعته فى ذلك ، بل تجب مجاهدته لمن قدر عليها أ هـ وقوله : « لمن قدر عليها » لها وزنها عند مقاومة المنكر .

ذلك قول العلماء العمالقة منذ مئات السنين فى فهم النصوص الدينية ، ومن الغريب أن المتجهين الى العنف يتعصبون لرأى بعض العلماء ، الذين كانوا يعيشون فى ظروف خاصة ، ليست مشابهة تماما لظروف المسلمين الحاضرة ، نادوا فيها بالعنف ضد الأعداء ، لأن الأعداء كانوا كفرة ، وإن تظاهروا بأنهم مسلمون ، كوسيلة من وسائل استمالة المغلوبين لهم ، وكذلك من كانوا يعاونون هؤلاء الكفرة فى الحقيقة المتظاهرين بالاسلام .

ومع تعصبهم لرأى هؤلاء يرفضون آراء كبار العلماء ، مع أن من يتعصبون لرأيهم يحترمون هذه القمم الشوامخ ، حيث ارتضت الأمة الاسلامية آراءهم بما يشبه الإجماع طوال هذه القرون .

ومن الملاحظ أن كثيرا من دعاة الاصلاح الأولين كانوا ينطلقون فى دعوتهم من الواقع الذى يعيشون فيه ، وقد يكونون على صواب فى ذلك ، لكن الأتباع والمريدين

والمعجبين الذين يعيشون فى بيئة مغايرة ، وفى زمن مختلف ، وفى ظروف أخرى مباينة - يحرفون دعوة الزعماء كماً وكيفا ، فيدخلون فيها ما ليس منها ، أو يسلكون منهجا غير منهجهم ، مثلهم فى ذلك مثل من سلكوا طريقا فى التربية الخلقية على منهج مرب كبير ، بينهم وبينه مراحل فى الزمن والفهم والإدراك ، فشوهوا الدعوة ، أو فتحوا ثغرة للطعن فى الطريقة ومن أسسها ، وهو البرىء الذى جنى عليه أتباعه .

إن الإنكار على الولاة الطاغين لا يكون باليد فى الظروف التى أشرنا اليها فالآثار وخيمة ، والنصوص تمنع من ذلك ، والإنكار باللسان هو الوسيلة الممكنة عند العجز عن الإنكار باليد ، كما صح بذلك الحديث « من رأى منكم منكرا فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان » (١) وشرح هذا الحديث مبسوط فى الجزء الأول من كتاب « بيان للناس » المشار اليه من قبل .

وكل انسان له الحق فى الإنكار بالوسيلة الممكنة ، مع التحفظات التى قررها علماء الفقه والتفسير والحديث والدعوة ، من واقع مقابلة النصوص بعضها ببعض ، واستلهام روح الشريعة التى جاءت للاصلاح .

---

(١) رواه مسلم .

وإذا كان النبى ﷺ قال : أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر » (١) ، وإذا قال أيضا : « إذا رأيت أمتى تهاب أن تقول للظالم يا ظالم فقد تودع منهم » (٢) . فإن ذلك يكون بالحكمة والموعظة الحسنة ، التى تؤمن معها الفتنة ، ويظن حصول الفائدة ، ولا يترتب عليه ضرر أكبر .

وللرسول ﷺ والسلف الصالح مأثورات فى ذلك ، يجب أن تتبع حتى لا تكون فتنة فى الأرض وفساد كبير ، بسبب حفظ شىء وجهل أشياء أخرى .

لقد كان النبى ﷺ إذا أراد أن ينكر شيئا وقع من بعض الصحابة ويرى أن التصريح به يؤدى إلى نتيجة غير مرضية ، كان يقول : « ما بال أقوام يفعلون كذا » دون ذكر اسم من وقعت منه المخالفة ، وبخاصة إذا كان فى جمع من الناس ، أو كان من الذين لم يرسخ الإيمان فى قلوبهم بعد ، فما أيسر على مثل هذا أن يثأر لكرامته - وللناس مقاييس مختلفة فيها - ويرفض الاسلام على الأقل إن لم يكن شىء آخر يصيب به من أهانه فى زعمه .

---

(١) رواه النسائى وابن ماجه باسناد صحيح .
(٢) رواه الحاكم وصححه .

. ومن هذا نعرف أن من تنكب هذا الطريق الحكيم من قلة نادرة من الدعاة الذين يحلو لهم تجريح الأشخاص ـ وبخاصة من لهم شأن ـ والتصريح بأسمائهم من فوق المنابر أمام المئات والألوف ، والتحدث باهتمام عن السلبيات ، وتناسى الايجابيات ، مما يدل على عدم الإنصاف ، وعلى خبيئة تعقدت بها نفوسهم ، فطفت على السطح بهذا الأسلوب ـ دعاة مخطئون ـ وبخاصة فى الظروف الاستثنائية .

واذا أحس بعضهم بإعجاب من يستمعون اليهم ممن لا يستطيعون التنفيس عن الكبت الذى يعانونه ، بمثل ما نفس به عنهم هؤلاء ـ ازدادوا اعجابا بأنفسهم ، وتماديا فى سلوك هذا المنهج البعيد عن الحكمة ، والذى جر بسببه نكبات على غيرهم من الدعاة ـ هل نسى هؤلاء قول النبى ﷺ فى الشخصيات الهامة : « أقيلوا ذوى الهيئات عثراتهم إلا فى الحدود » (١) .

وصدق الله إذ يقول : « يؤتى الحكمة من يشاء ، ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا ، وما يذكر إلا أولو الألباب » (٢) .

---

(١) رواه أحمد وأبو داود .
(٢) سورة البقرة : ٢٦٩

إن الأسلوب الحكيم خير هاد فى هذا السبيل ، وما كان من آثار السلف من مواجهة العلماء لظلم الظالمين كانت الفتنة فيها مأمونة ، وذلك لتمكن الروح الدينيـة من نفوس المسلمين ، واحترام الولاة للعلماء الذين يمثلون الشعب ، لأنهم آباؤه الروحيون ، وحراس الدستور من التحريف ، ولأمل العلماء ، فى استجابة الولاة للنصح ، ولالتزامهم الأسلوب الحكيم المناسب لكل موقف ، ولكل موقف ما يناسبه ، وقد وصى الله موسى وهارون بقوله: « اذهبا الى فرعون إنه طغى ، فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى »(١) .

إنى أؤمن بمبدأ أرجو أن أكون فيه غير مخطىء ، اذا وجه الإنسان نقدا لغيره فليقدم حسن الظن به ، ولا ينس إيجابياته ، فلعل له عذرا لا يستحق معه اللوم ، ولعل إيجابياته تشفع لسلبياته ، فهو ليس بملك معصوم ، ثم ليحاول إصلاح ما يريد إصلاحه منه بالأسلوب الحكيم ، واذا وجه الغير له نقدا فليتهم نفسه ويظن بها السوء ، وليهتم بإصلاح سلبياته مهما قل شأنها فى نظره ، لأنها كبيرة فى نظر غيره ، وهذا الشعور

(١) سورة طـه : ٤٣ ، ٤٤ .

يحمل على الجد فى تقويم النفس ، لأن سلبية صغيرة ربما تطيح بكل إيجابيات الانسان فى نظر غيره ، وهذا يحمل على عدم الغرور بما عنده من رصيد ، فى هذه الإيجابيات مهما كبر هذا الرصيد .

وإذا كان هذا - فى رأيى - هو ما ينبغى لأى مؤمن عادى أن يلتزمه ، فكيف بمن حمله الله أمانة التربية بالدعوة الى الخير ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ومن افترض فيه الناس المثالية فى السلوك ليكون قدوة ، حيث يعدون الصغيرة منه كبيرة ، والمكروه حراما ، والمباح أحيانا غير لائق ؟ .

ذلك الافتراض الذى يرهق الداعى ليكون ملتزما ، وإن كان الواجب عليه العمل لوجه الله ، والاخلاص له سبحانه ، بعيدا عن انتظار المثوبة من أحد غير الله ، وإذا كان هذا الالتزام من أجل النجاح فى دعوته ، تلك الدعوة التى تثمر الخير الكثير للمدعوين - فلن يحرمه الله ثواب من اهتدى على يديه ، حيث يعطيه مثل ما يعطى من ثواب على عمل قام به المتعلم بسبب ارشاد المعلم، فالدال على الخير كفاعله ، والأعمال بالنيات ، ولكل امرىء ما نوى ، كما فى الحديث الصحيح .

بعد هذا أقول : ليس كلامى فى أهمية الحكمة فى الدعوة تخذيلا يضعف روح الاصلاح ، ولكنه توجيه للأسلوب الصحيح ، الذى يرجى منه الخير ، ويوصل الى الغاية دون أضرار ، أو بأقل الأضرار ، فالإسلام لا يرضى الذل والخنوع ، بل يحرص على الكرامة الانسانية ، ولكن فى إطار : « لا ضرر ولا ضرار » وباتباع الأسلوب النابع من سنن الله الكونية ، فى احترام قانون الأسباب والمسببات ، لقد قال الله سبحانه : « وكان حقا علينا نصر المؤمنين » (١) ، وهو صادق فيه ، لأنه لا يخلف الميعاد ، ومع ذلك نبه الى وسيلة هذا النصر بقوله : « إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم »(٢) ، وقد سبق ذلك كما سبقت الآية التى فيها : « ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض » (٣) فالذين يريدون الوصول الى الغاية بدون كفاح واهمون ، والذين يكافحون على غير هدى متخبطون ، لم يفهموا سنة الله الكونية ، ولا نصوص الدين فهما صحيحا .

نتابع الحديث مع المتحمسين للتغيير بالشعارات فحسب ، أو الممارسين لبعض شعائر الدين ليستنزلوا

---

(١) سورة الروم : ٤٧
(٢) سورة محمد : ٧
(٣) سورة محمد : ٤

بها نصر الله من السماء ، معتقدين أنها من أصول التغيير الحقيقى للمجتمع ، أو كاحتجاج على مسلك غيرهم ممن يرون أنهم عمد الفساد فى الأرض فنقول :

تغيير المجتمع بالطريق السلمى يحتاج الى زمن طويل ، والزمن الذى طور فيه الرسول ﷺ المجتمع العربى الجاهلى الى مجتمع مثالى هو اعجاز فى تاريخ الرسالات والحركات الإصلاحية ، مع ملاحظة أن دعوة الاسلام ليست للعرب وحدهم ، بل هى للعالم أجمع : « تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا » (١) ، وقد استغرق نشر الدعوة سنين طويلة ، وكفاحا مريرا ، حتى وصلت الى ما وصلت اليه .

وحسب الرسول ﷺ أنه بدأ الخطوة ، ثم تابع المسلمون بعده الخطوات ، فعامل الزمن لا بد أن يعمل حسابه ، مع الاعداد السليم فى كل النواحى .

لقد كتب كثيرون فى هذا المجال ، وقدموا أوراق عمل للعودة الى الدين ، ولكل وجهة هو موليها فى اختياره المنهج الذى تقدم به ، وأعتقد أنها جميعا يمكن بالمقارنة بينها ، وتلمس المتفق عليه منها ، أن يوضع منهج يرجى

---

(١) سورة الفرقان : ١

أن يكون هو المنهج السليم للوصول الى الغاية المنشودة، مع التأكيد على مراعاة الظروف فى كل عصر ومصر ، أو فى كل زمان ومكان .

وهأنذا أتقدم ـ من وجهة نظرى وأكرر ذلك ـ بمنهج إن يكن فيه بعض الصواب فحسبى أننى أدليت بدلوى فى الدلاء ، وشاركت بهذا الجهد المتواضع ، والمجـال واسع ، والباب مفتوح على مصراعيه ، وأقرب المناهج للصدق ما كان معتمدا على حقائق مأخوذة من النص، أو من شهادة الواقع ، الذى أثبت جـــدارة هذا الدين بتحقيق الغرض منه ، وهو إخراج الناس من الظلمات الى النور ، إذا اتبع الأسلوب الحكيم دعوة وتطبيقا ، وكان ملازما للإخلاص تخطيطا وتنفيذا .

●●●

منهـــج الإصـــلاح

يقول علماء الأخلاق والتربية من المسلمين : إن كل عمل من الأعمال لابد لإنجازه من خطوات ثلاث، كررها حجة الاسلام الامام الغزالى المتوفى سنة ٥٠٥ هـ فى كتابه العظيم : « إحياء علوم الدين » وهى بتعبيره : العلم والحال والإرادة ، فالذى يريد أن يقيم بناء لاستغلاله لابد أن يتصور فى ذهنه موقعه ومساحته وعدد طوابقه، ووحداته والمواد اللازمة لإنشائه ، والأموال التى تنفق عليه ، ولو بصورة إجمالية أولية ، ثم بعد ذلك وبعـد غيره من التصورات ، يدرس الجدوى والفـائدة التى تعود عليه منه ، مادية كانت أو معنوية ، دنيوية كانت أو أخروية ، وبعد الدراسة قد يقتنع بفائدته ، وقد يقتنع بعدم فائدته ، فاذا اقتنع بفائدته توجهت إرادته الى التنفيذ ، أى إخراج ما فى الذهن الى حيز الوجود ، أو تطبيق الفكرة وترجمتها الى عمل ، وذلك له اجراءات أخرى ، فلنعط توضيحا لهذه الخطوات فيما يلى .

أولا ـ العـــلم :

أقصد بالعلم هنا فى مجال العودة الى الدين ـ العلم

بالدين الذى يراد تطبيقه ، وهذا العلم لابد أن يكون فيه وصفان .

أولهما : الشمول والإحاطة والتمام ، وثانيهما : الصدق والصحة والدقة ، أى علم حقيقى فى البعدين ، الأفقى والرأسى بالتعبير الحديث .

فالعلم الشامل هو العلم بما فى الدين ، من عقائد وعبادات ، ومعاملات وأخلاق ، والإحاطة بكل ما جاء به من أحكام ، للمجتمع الاسلامى ، والمجتمع الانسانى كله ، والعلم بذلك يؤخذ من المصدر الأساسى للتشريع، من قرآن وسنة ، نظمه ووضحه العلماء المتخصصون ، والأئمة المجتهدون ، فى كتب لم يظفر بمثلها أو بما يقاربها أى تشريع سماوى ، أو أرضى ، قال تعالى : « ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شىء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين » (١) وقال : « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » (٢) وقال : « فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون » (٣) الى غير ذلك من النصوص والتوضيحات ، الموجودة فى الجزء الأول من كتاب : « بيان للناس » تلك النصوص التى تبين سعة

---

(١) سورة النحل : ٨٩
(٢) سورة الحشر : ٧
(٣) سورة النحل : ٤٣ والأنبياء : ٧

الهداية وشمول المعرفة ، تحقيقا لقوله تعالى : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا »(١) .

ومع شمول العلم، لابد أن يكون صحيحا ودقيقا ، لتكمل المعرفة كما وكيفاً ، مع أهمية التمييز بين الأساسى منه وغير الأساسى، لمراعاة الأولويةعند اللزوم، فالعقائد وما كان معلوما من الدين بالضرورة هى عمد أساسية لابد منها لإقامة هيكل الدين ، والفرائض والواجبات تقدم فى الأهمية على المندوبات والمستحبات، والمحرمات يجب اجتنابها قبل المكروهات ، أى تعطى الأولوية عند الاقتضاء، بل إن المحرمات نفسها درجات، ففيها الكبائر وفيها الصغائر ، ولكل منزلته فى التشريع .

إن العلم المبتور الذى يركز على البعض ويترك البعض الآخر ، وادعاء أن ما علم فقط يمثل الدين كله جهل وافتراء على الله ، ووصم للدين بالقصور ، وهو الهداية الشاملة لكل ما يحتاجه البشر عاجلا وآجلا ، والذى يحتاجه البشر ميادينه متعددة ، والانسان كما يحتاج الى العبادة ليقوى بها صلته بالله ، وصلته بالمجتمع ، يحتاج الى ما يحفظ عليه حياته ، ويوفر له

---

(١) سورة المائدة : ٣

قدرته على القيام بهذه العبادة وغيرها ، وذلك بالغذاء والكساء والمسكن وما اليه ، ووسائل ذلك متعددة ، كما يحتاج الى حسن استخدام النعـم المتاحة له ، وعـلاج مـا يقع من أخطـاء .

والإنسان لا ينعم بكل ذلك إلا فى جو آمن تحفظ فيه حقوقه لدى الآخرين الذين يعايشهم ، ويلزم لذلك علم بوسائل الانتفاع ، وحسن الاستخدام ، وتنظيم العلاقات والفصل فى المنازعات ، ورد العدوان ، وحماية الأوطان وما الى ذلك مما نراه اليوم وقبل اليوم ، فى الأنشطة الدنيوية المختلفة ، وأخـذ بعض الهداية على أنها هى وحدها الـدين ، عجز أكيد عن تحقيق سـيادة الحكم الدينى ، كالسيارة التى تنقصها بعض الإطارات ، أو الأدوات المحركة لها .

والعـلم المشوه أو السـطحى ، الذى لا يمـيز بـين الضرورى وغير الضرورى ، يعطى فرصة للمعارضين للتيار الدينى أن يقولوا : الى أى دين يدعو هـؤلاء ، وما هو الدين الذى يرتضونه منهجا للحكم ، أهو اسلام السلف أم إسلام الخلف ؟ أهو تشريع أبى حنيفة ، أم تشريع أحمد ؟ أى اسلام ينادون بالعودة اليه ، ليكون هو الحل الوحيد الأمثل للمشكلات ، والمخرج الآمن من كل هذه المعاناة ؟

إنهم مختلفون فى فهم الدين ، وبالتالى فى ممارسته، ومن الخطأ أن تتحدث جماعة منهم عن الاسلام كله من وجهة نظرهم هم ، وانما لها أن تتحدث عن تصورها للدين ، وما ركزت عليه اهتمامها منه ، لأن الاسلام عند فهمه الصحيح ، يسع كل هذه التشكيلات والجماعات ، بل يسع غير المسلمين ليعيشوا فى ظله آمنين .

أقول :

لابد من فهم الاسلام على أنه أصول متفق عليها ، وفروع يقع فيها الاختلاف ، والاختلاف الضار هو فى الأصول ، وأول ما أطلق اسم الابتداع والزندقة كان فى الخروج على الأصول .

والاختلاف فى الفروع أمر طبيعى ، لأن الاجتهاد يتدخل فيها ، ولكل مجتهد عقله ورأيه وقدرته على الاستنباط من منابع التشريع ، والمنصف يرى أن هذا الاختلاف الفرعى رحمة ، لأن فيه سعة تدل على مرونة الاسلام ويسره ، وعلى صلاحيته للتطبيق فى كل الظروف ، والذين تفرقوا وتعادوا بسبب هذه الفروع هم على خطأ كبير .

إن الأديان بوجه عام متفقة فى أصول العقائد ، والقيم اللازمة لسعادة كل مجتمع ، كالعدل والرحمة والتعاون، مختلفة فى تشريعاتها وقوانينها ، المنبثقة عن الدستور الأساسى ، وذلك لتناسب العصور والمجتمعات التى نزلت فيها ، قال تعالى : « وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ـ التوراة والإنجيل وغيرهما ـ ومهيمنا عليه ، فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق ، لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا (١) •

والعلم المشوه مدرجة الى التهاون فى الأساسيات التى يقام عليها البناء ، وإلى التعب فى أداء ما ليس بضرورى كالذى يهتم فى بناء البيت بارتفاع جدرانه ، ولون طلائه وتزيين شكله وتأثيثه ، باذلا فى ذلك قدرا كبيرا من المادة والعمل ، على حين أن أساس البيت غير متين ، فالبيت لا يلبث أن ينهار ولو بعد حين ، ثم يقف صاحبه يعض بنان الندم ، ويأسف على جهله بأصول البناء ، ولو أنه عهد به الى المختصين ما كانت هذه العاقبة الوخيمة •

---

(١) سورة المائدة : ٤٨

ثم من الذى يقوم بمهمة فهم الدين وتفهيمه للناس على أساس من الشمول والدقة ؟ المفروض أن كل مسلم يجب عليه اللجوء الى المنبع الأصلى ، الذى أنزله الله للهداية ، وما وضحه به النبى ﷺ ، وذلك ليتعلم منه ، لكن ذلك إن كان مستطاعا للبعض لظروف مساعدة ، فهو ليس بمستطاع للجميع ، فالصحابة والسلف الصالح كانت عندهم القدرة على استنباط الاحكام من نصوصها مع تفاوتهم فيها ، ولما ضعفت وسيلة فهم القرآن وهى اللغة العربية ، وضعف ما أثر عن الرسول وصحبه ، قام رجال موهوبون بهذه المهمة ، يملكون وسائل الفهم والاستنباط ، فوجدت المدارس الكلامية والفقهية واللغوية والسلوكية ، وكذلك وجدت نهضة ثقافية جبارة ، وترك هؤلاء الرواد مكتبة ضخمة ، فيها كل فنون المعرفة بمعناها الواسع ، الذى لا يقتصر على ما يسمى فى العصر الحاضر بعلوم الدين ، وأصبحت هذه الكتب مصادر الثقافة الرفيعة ، وأخذ الدارسون الفاهمون لها يعلمون غيرهم ما يحتاجون .

وليكن معلوما أن من مسائل الدين ما هو واضح لا يحتاج الى كبير عناء فى فهمه ، كمعرفة وجوب الإيمان بالله ، وبالبعث بعد الموت ، ومعرفة وجوب الصلاة ، والزكاة والصوم والحج ، ومعرفة حرمة الشرك بالله ،

والقتل والسرقة ، والربا والخمر وما إليها ، فهى أمور استفاض العلم بها جيلا بعد جيل ، وذلك فى هيكلها العام دون التفاصيل الدقيقة التى تحتويها .

والأمـــــور الأخرى ـ وكذلك دقائق الأســـــاسيات وتفاصيلها ـ تحتاج فى العلم بها الى جهد يستعان فيه بالفاهمين بصدق ما حواه كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وكتب أعلام الفكر الاسلامى ، فأوجب الدين على كـل مكلف أن يطلب العلم ، وشجعه عليه بوسائل كثيرة ، وفى الوقت نفسه أمر العلماء بنشر العلم وعدم كتمان شىء منه عمن يحتاجون اليه ، والنصوص فى ذلك أشهر من أن تذكر .

والأمور الأساسية الواضحة ، يمكن لأى انسان عرفها أن يعلمها غيره ، وهذا التعليم يشترك فيــه كل قادر عليه ، وفى مقدمتهم ، الأباء والأمهات .

أما ما يحتاج الى فهم دقيق ، فتقوم به معاهد التعليم، والمؤسسات الثقافية المختلفة ، والعلماء الذين يقومون بهذه المهمة ، وهى التعليم ، كانوا طلاب علم أولا ، وبعد ذلك صاروا مؤهلين لأن يعلموا غيرهم ، وبحمد الله هم موجودون فى كل بلد اسلامى ، على تفاوت بينهم كمــا وكيفا ، وكانت هناك على مــــدى التاريخ مدارس ، تقوم بمهمتين :

الأولى : تعليم الراغبين والمحتاجين الى العلم ، كبقية المؤسسات التعليمية ؛

والثانية : تخريج المعلمين الذين يقومون بالتعليم فى المجالات المختلفة ، وعلى رأس هذه المدارس ذات المهمتين ، الجامع الأزهر الشريف ، الذى أنشأه الفاطميون فى مصر ، فى القرن الرابع الهجرى ، الى جانب جامعات أخرى فى بعض البلاد الاسلامية فى الشرق والغرب .

من هؤلاء المتخصصين يمكن تعلم الدين ببعديه الأفقى والرأسى ، أى الشامل والدقيق ، وهم فى ذلك درجات، بعضهم أكثر علما وأدق فهما ، وأقدر على التعليم كذلك ، والله سبحانه يقول : « وفوق كل ذى علم عليم » (١) ، ومهما بلغ علم أحدهم فهو قليل ، كما قال رب العزة : « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » (٢)، وقال لنبيه ﷺ : « وقل رب زدنى علما » (٣) ، فالعلم بحر لا ساحل له ، ومن هنا لا ينبغى أن يغتر أى عالم - بله الجاهل - بما حصله من علم ، فيدعى أنه بلغ فيه الذروة ، ولا يوجد أحد أعلم منه ، فيقصر عن

(١) سورة يوسف : ٧٦
(٢) سورة الاسراء : ٨٥
(٣) سورة طه : ١١٤

الاستزادة أو يحقر غيره ، ففى القول المأثور المنسوب الى ابن المبارك : لا يزال المرء عالما ما طلب العلم ، فاذا ظن أنه قد علم فقد جهل .

وتعليم الله لنبيه موسى على يد الخضر معروف ، فقد جاء فى الحديث : أن موسى عليه السلام خطب يوما فى بنى إسرائيل فظن أنه لا يوجد أحد أعلم منه ، فهيأ الله له اللقاء بالخضر الذى قال له ــ وقد رأى عصفورا يأخذ بمنقاره بعض الماء من البحر ــ مثل ما عندى وما عندك من العلم كمثل ما أخذ العصفور من البحر « قال له موسى هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشدا . قال إنك لن تستطيع معى صبرا . وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا » (١) ولله در الشافعى إذ يقول :

كلما أدبنى الدهر ... أرانى نقص عقلى
وإذا ما زدت علما ... زادنى علما بجهلى

وقد حذر الاسلام من التصدى للتعليم دون خبرة ودراية ، فذلك ضلال وإضلال ، يقول النبى ﷺ « إن الله لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من العباد ، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء ، حتى اذا لم يبق عالما اتخذ

---

(١) سورة الكهف : ٦٧ ، ٦٨

الناس رؤساء جهالا فأفتوهم بغير علمفضلوا وأضلوا»(١) وقد كان الصحابة رضوان الله عليهم يتحرجون من الفتوى ، ويحيل كل منهم على الآخر فيما لا يتأكد منه .

ثم إن مهمة تعليم الدين ليست مهمة معهد واحد ، أو مؤسسة معينة ، كما سبق ذكره ، بل هى مهمة كل قادر عليه ، فى حدود معرفته ، وبالقدر الذى يستطيعه، والأجهزة التى تحمل العبء الأكبر فى هذه الناحية هى وزارات التربية والتعليم ، والثقافة والإعلام ، والأوقاف والشئون الاسلامية ، الى جانب المعاهد المتخصصة للتعليم الدينى ، وتخريج المعلمين ، كالأزهر الشريف ، فى مصر، والجامعات الدينية فى العالم الاسلامى .

وأرى أن يكون تعليم الدين أساسيا فى كل مراحل التعليم ، بالقدر الذى يعرف به المسلم أصوله ، وما لا ينبغى لهأ ن يجهله ، وذلك ليمارس التدين على نور ، ويستطيع أن يحمى نفسه من كل فكر لا يتفق مع الدين أو يدفعه ويبطله إن كانت له القدرة على ذلك ، أو يعرضه على المختصين ليقوموه .

---

(١) رواه البخارى ومسلم .

وعلى رأس المواد التى يجب البدء بتعلمها وتعليمها القرآن الكريم ، لأنه أولا دستور المعارف كلها ، وثانيا يساعد على إتقان اللغة العربية التى نزل بها ، صح فى الحديث : « خيركم من تعلم القرآن وعلمه » (١) والمساجد لها دور كبير فى تحفيظ القرآن ، كما كانت الكتاتيب من قبل ، وفى تعليم الدين لمن لم يتمكنوا من تعلمه فى المؤسسات الرسمية ، وبتعاون الجميع فى هذه المهمة ، يمكن أن تتضح الرؤية لمن ينادون بالعودة الى الدين ، من الشباب بالذات ، الى جانب القادة الدينيين الذين لا يملون من هذا النداء بالأسلوب المناسب .

●●●

(١) رواه البخارى .

دور الأزهـــر

وبهذه المناسبة أقول : إن من فضل الله تعالى علـى الأمة الاسلامية كلها ، أن وجد معهد مكرس كل جهوده لتعليم الثقافة الدينية أصولا وفروعا ولغة ، ولتخـريج المعلمين لها ، وذلكم هو الأزهر الشريف ، الذى اختار الله له أرض الكنانة مصر ، لموقعها الجغرافى الممتاز ، وإمكاناتها الثابتة ، وتاريخها العريق ، فتيسر لها القيام بهذه المهمة الـكبيرة .

وقد قام العلماء الذين تخـرجوا منـه بواجبهم فى الدعوة الدينية ، مراعين كل الظروف ، وسالكين طريق الحكمة ، الى جانب دورهم البارز فى الإصلاح الاجتماعي والسياسي ، عندما كانوا يمثلون وحدهم الطبقة الواعية المثقفة ، وما كان لهم من مكانة فى نفوس الشعب والولاة جميعا ، حيث لم تـكن هناك مجـالس تشريعية ، ولا مؤسسات ذات بال يلجأ اليها فى رفع الظلم وفى الحكم بالعـدل .

أما وقد تغيرت الظروف فى الوقت الحـاضر ، فقـد نـزع اختصاص التشريـع من العلمـاء ، واستبدل به

التشريع الغربى ، ووجدت مؤسسات وتنظيمات جديدة وضع فكرتها الاستعمار ، للتخلص من الاستمداد من مصادر التشريع بمعرفة علماء الدين ، وتنبه الفرنسيون والانجليز لخطورة دور الأزهر فى مصر والعالم الاسلامى كله ، وبخاصة فى المناطق التى تعج بالخيرات ، وتسابق الاستعمار لابتزازها والتحكم فيها ، فهاجموه وقلصوا ظله ، وصرح « جلا دستون » فى مجلس العموم البريطانى ، بأنه لا يقر للانجليز قرار فى مستعمراتهم ما دام فيها المصحف والأزهر ، فحصروا دوره فى التعليم داخل جدرانه ، وفى المساجد فقط ، وأخذوا التعهدات على المنتسبين اليه بعدم الاشتغال بالسياسة ، وحجبوا العلماء عن التعليم فى المدارس التى أنشئوها ، لأن مناهج التعليم فيها وضعت لخدمة أغراضهم ، فى المدارس الابتدائية والثانوية بالذات ، وشجعوا المتخرجين فى هذه المدارس باسناد الوظائف اليهم ، مع العمل على نضوب المورد الذى يمد الأزهر بطلابه ، بمحاربة الكتاتيب ، وإنشاء مدارس الزامية لصرف الناس عنها .

كل هذا وغيره تخطيط استعمارى ، نفذه عملاؤه من الانتهازيين ، أو السذج الذين لا يحسون بما يدور حولهم ، وبما يدبر للاسلام والمسلمين من مؤمرات .

ومع بذل الجهد فى تقليص دور الأزهر ، وابعاده عن المجال السياسى والاجتماعى ، لم ينس العلماء دورهم التقليدى ، فى نشر الفضيلة ، ومحاربة الرذيلة بكل أشكالها ، والدعوة الملحة للعودة الى الدين ، وتحكيمه فى سلوكنا الفكرى والعملى ، ومحاربة الدخيل من العادات والنظم المنافية للدين ، ولكن بالأسلوب الحكيم عن طريق القنوات الشرعية ، التى حددتها النظم الجديدة .

وكانت نداءاتهم موجهة الى كل المسلمين ، حكومات وشعوبا ، وعن طريق هذه القنوات ، استمرت الخطابة فى المساجد ، والكتابة فى الصحف والمجلات ، ونشر الكتب ، والبث فى الاذاعة المسموعة والمرئية ، ونادوا كجزء من التغيير للوضع الحاضر المتدنى ، بتطبيق أحكام الشريعة الاسلامية فى العقوبات ، وبالمحافظة على القيم والأخلاق ، تطبيقا للدستور الذى وضع بعد الخلاص من الاستعمار ، ومن تحكيم قوانينه ، والاهتمام بتغيير القوانين الوضعية ، أو تنقيتها مما يخالف الشريعة ، عن طريق مجالس التشريع ، وذلك فى البلاد التى تنص دساتيرها على أن الدين الرسمى للدولة هو الاسلام .

أما البلاد التي تسير في ركب العلمانية ، فإن جهاد العلماء فيها شاق ، وما تزال عندهم بقية أمل ؛ أن يعرف المسئولون فيها خطورة بعدهم عن الدين ، وعسى أن يكون ذلك قريبا ، وبخاصة بعد أن رأوا إفلاس النظم ، التي تنكرت للدين عشرات السنين ، وعبدوا فيها المادة وعاثوا في الأرض فسادا بقوة جبروتهم ، فكان عاقبة أمرهم خسرا .

وأنتهز هذه الفرصة وأقول : إن بعض المنادين بحتمية العودة الى الدين ، يبذلون جهدا كبيرا في السعي الى تغيير القوانين لتكون مطابقة للشريعة ، ولئن كان هذا سعيا مشكورا ، فان الاصلاح المنشود لا يقف عند هذا الحد ، إنما المهم هو التطبيق والممارسة لا التقنين فقط ، فلابد من ظهور أثر ذلك على السلوك الفردي والجماعي ، فالقرآن الكريم ، مع أنه دستور الحكم للأمة الاسلامية ، وفيه المنهج السليم للإصلاح العام ، مع معرفة المسلمين لمواده ، نرى كثيرا منهم لا يطبقونه في العبادات والأخلاق ، كما نرى ذلك في القوانين الوضعية الصالحة ، فبعضها معطل تماما في مجال التطبيق ، والأمثلة على ذلك كثيرة .

دور الإعـلام والفن

هذا ، ولا ينبغى أن نغفل فى هذا المقام ، منابع الثقافة الأخرى ـ غير مؤسسات التعليم ـ كالصحافة والاذاعـة والمسارح وغيرها ، فلا بد من تعاونها جميعا فى التوجيه السليم ، أما أن يقصر أحدها أو يسير فى اتجاه معاكس، فذلك له أثره الخطير فى عدم الفهـم أو تشويهه ، وفى السلوك أيضا ، ضرورة التلازم بين الأمرين الى حـد كبير .

إن جهاز الاذاعة بالذات ، وبخاصة المرئى ، جهاز خطير فى التوعية والتربية معا ، ذلك أن متحدثا واحدا يذيع أو يعرض ، والذين يتلقون عنه ليسوا عشرات فى فصل دراسى ، أو مئات فى مدرج أو مسجد ، لكنهم آلاف وملايين يتأثرون به فـكرا وسلوكا .

لقد فرض هذا الجهاز نفسه على الناس ، لا تحجزهم عنه حواجز ، فى كل يوم تبتكر وسائل لزيادة فعاليته،

لينقل كل ألوان الثقافة فى شكل ترفيهى الى العالم كله، عن طريق الأقمار الصناعية ، وما يتنفس عنه التطور من وسائل أخرى ، تجعل العالم كأنه طبق بين يدى الانسان ، فيه كل ألوان المأكولات ، يختار منها ما يريد .

وهو اذا تحكم فيه المتلقى العاقل ليستقبل الخير الذى يبثه فقط ، فمن الصعب أن يسيطر على بقية أفراد أسرته ، وعندهم من العوامل ما يشدهم اليه ، لا يستطيعون معه المقاومة ، ولئن أمكنت السيطرة على كل من فى البيت ، فماذا يفعل فيما يذاع من الأجهزة التى تملأ الشوارع والبيوت المجاورة ، والمحلات العامة، كالنوادى والمقاهى وما اليها ؟ .

أنت لم تذهب الى هذا الجهاز لتنتسب اليه وتتعلم منه بالمؤهلات والشروط المطلوبة ، كما هو الحال فى دور التعليم ، ولكنه هو الذى سعى اليك وقال : هيت لك ، يسر لك الحصول عليه ، واقتحم بيتك حتى لاحقك فى غرفة نومك ، وساعة راحتك من ليل أو نهار ، لا يحجزه عنك زمان ولا مكان، ومن هنا كان على المسئولين عن البث منه أن يراعوا القيم والأخلاق ، الى جانب

المعارف الصحيحة ، مع حسن استغلال العنصر الترفيهى حتى لا يكون فيه خروج على الآداب أو فساد للأخلاق ، أو تضليل للأفكار ، أو طغيان على البرامج الهامة الأخرى .

أقول هذا ولست فى غفلة عن محطات الاذاعة العالمية وتيسير الأقمار الصناعية لسماعها ومشاهدتها ، وما يخططه المسيطرون عليها من فرض أفكارهم على العالم وشدهم الى انتاجهم فى الميادين المختلفة ، وبخاصة العالم المتخلف أو النامى ، الذى تبهره هذه الغرائب، ويذوب فيها فكره وخلقه وماله ، ويعيش أسيرا لأصحاب هذه السموم ، التى ينفثها بكل الوسائل ، لبسط السلطان والنفوذ ، على كل ما يستطيعون .

إن الأمر جد خطير ، والجهاد فى وسط هذه الميادين جهاد عنيف ، والأجر فيه مضاعف ، لأن القابض فيه على دينه كالقابض على الجمر ، فلنعد الى مجتمعاتنا المحلية المحدودة ، التى لن تعيش دائما محدودة ومنغلقة بعد وجود هذه المبتكرات الجبارة ، لتقريب المسافات وسهولة الاتصالات .

أقول : إن الفن بوجه عام له دوره فى الإعلام والتوجيه لا يجوز إغفاله ، ويجب توجيهه وجهة الخير ، ليتلاقى مع الأجهزة الأخرى فى عملية التغيير المنشود .

●●●

الانحراف فى العلم

هذا ، وقد يستحل بعض الغيوريين على الدين أمورا محرمة ، لأنه لا يعرف الحكم الدينى الصحيح فيها ، أو لا يعرف شروطها والتحفظات الموضوعة لها ، سواء أكانت هذه المحرمات فى خاصة نفسه أم فى علاقته مع غيره ، وقد يتمسك ببعض أمور تمسكا يرفعها الى « درجة الوجوب والإلزام » معتقدا أنها من أعمدة الاسلام الذى ينادى بالعودة اليه ، وياليته ـ كما سبق أن ذكرنا ـ اقتصر فى ذلك على نفسه ، بل حاول أن يفرضه على غيره بأية وسيلة من الوسائل ، ويعد المتقاعس عنه خارجا عن الدين خروجا كليا « كافرا » أو مقصرا فيه « فاسقا » ويعامله على هذا الأساس ، بما يورطه فى أمور تجر عليه وعلى ذويه وعلى المجتمع نكبات ونكبات ، بل تعطى صورة مشوهة عن الاسلام نفسه ، والاسلام منها براء .

أذكر بهذه المناسبة أننى كنت فى أخد اللقاءات مع طلاب الجامعة فى إحدى المحافظات ، فجرى على لسانى لفظة عادية ، التقطها أحد الشباب المتحمس لتطبيق الشريعة وقال لى : قد انطبق عليك الحديث الشريف :

« من حلف بغير الله فقد أشرك » فقلت : هــل كل من جرى على لسانه حلف بغير الله يعد مشركا حتى لو كان هو الرسول ﷺ فلم يحر جوابا ، فقلت له : لقد صح أن الرسول ﷺ قال للرجــل الــذى سأله عن فرائض الاسلام ، وحلف بأنه لا يزيد عليها ولا ينقص : « أفلح وأبيه إن صدق » (١) فماذا تقول فى ذلك ؟ انه لا يريد أن يتخاذل ، رد فقال : المعنى أن الرجل أفلح هو وأبوه إن صدق .

هذه صورة من صور الجهل المطبق ، لطالب جامعى يسير فى ركاب المنادين بالعودة للدين ، وهو لا يفرق بين واو العطف وواو القسم ، ولا يعرف إعراب الأسماء الخمسة ، بل ولا يعرف أن الرسول ﷺ ما قصد بــذلك قسما يعظم به والد هذا الرجل ، ولكنها كلمة تجرى على الألسنة ـ كما قال شراح الحــديث ـ ومثلهــا كثير فى حياتنا العادية .

إن الجهل مصيبة كبرى ، لو حللنا موقف هذا المسكين لأوشكنا أن نحكم عليه هو بالكفر ، فان من كفر مسلما ـ ولو كان عاديا ـ عاد الكفر عليه هو إن لم يكن الثانى كافرا ، والحمد لله أنا مؤمن ، وأرجو الله أن يتم نعمته على ، ويلحقنى بالمؤمنين الصادقين .

(١) رواه مسلم .

أهميـة اللغـة العـربية

إن الجهـل باللغة العـربية التى هى مفتـاح لفهـم النصوص ، يؤدى الى جهل بالأحكام الشرعية ، واللغـة بحركات إعرابها ، وقواعد تصريفها ، وتركيب أسلوبها وأنواع البلاغة فى هـذه الـتراكيب ، التى تقوم عـلى الحقيقة والمجاز ، والصريح والكناية ، والحصر والقصر وما الى ذلك تحتاج الى دراسـة عميقـة ، وليس من السهل على من أخذ منها حظا بسيطا أن يستقل بفهـم النصوص ، فرب حرف يوضع مكان حرف يغير المعنى ، ورب ضمة توضع بدل فتحة تغير المعنى ، بل رب نقطة توضع فى غير محلها تؤدى الى خطإ كبير .

ومن الحوادث فى ذلك :

١ ـ عندما نزل قول الله تعالى فى الصيام : « وكلوا واشربوا حتى يتبين لـكم الخيـط الأبيض من الخيـط الأسود »(١) وضع أحد الصحابة وهو عدى بن حـاتم

(١) البقـرة : ١٨٧

خيطين عند رأسه ونام ، وانتظر طلوع النهـار ليميز بينهما ويصوم فنزلت : « من ألفجر » فعلم أنه المـراد من هذا التعبير •

٢ ـ قرأ أحد الناس من أوائل سورة التوبة : « وأذان من الله ورسوله الى الناس يوم الحج الأكبر أن الله برئ من المشركين ورسوله » قرأها « ورسوله » بجـر اللام فصار المعنى أن الله برئ من الرسول كما أنه برئ من المشركين ، وكان ذلك سببا فى الإسراع بوضع قواعد النحو لتصحيح النطق العربى •

٣ ـ قال الشاعر الأزهرى ، الشيخ محمد الأسمر ، أبياتا من الشعر كلها غزل فى فتاة من بيت يكون الغزل فى نسائه جناية كبرى تصل الى قطع الرقاب ، ولولا أنه ذكر أن كلامه على التشبيه لا الحقيقة لنفذ فيه الحكم ، قـال :

عذراء من أرض قنا   شريفـــة المحلـــة
قبلتهـا فقهقهـــت   ضـاحكة من قـبلتى
ولـم أزل ألثمهـــا   حتى رويت غـــلتى
حبيبتى تـــلك ومـا   عنيت غــير قـلتى

هو يتغزل فى القلة ، التى تصنع من أرض قنا ، ولها شهرتها القديمة - ومن بلد الأشراف الــذين يسكنون هناك ، والغزل فى البنت العذراء فى هذه المنطقة جزاؤه معــروف ٠

٤ - أحــد القرويين كان يخطب الجمعة من ديوان لــم يحسن قراءته ، خطب الناس وقال : من أتى الجمعــة فليأت بقفة وسكينة وفار ، فجاء المصلون فى الجمعــة الثانية كل يحمل القفة والسكينة والفــار ، وفى زيارة أحد الفاهمين وجد هذا المنظر فعلم أن الخطيب نطق خطأ هذه العبارة « من أتى الجمعة فليأت بعفة وسكينة ووقار » وضع على العين نقطتين ، ووضع على الــكاف شدة ونقص القاف نقطة ٠

الأمثلة كثيرة ، ترينا الى أى حد يكون الخطأ اللغوى مفضيا الى نتائج خطيرة ٠

●●●

خطـر التعصـب

أعود فأكرر أن من الخطـأ الـكبير أن يتولى غـير متخصص فاهم قيادة جماعة اغتر بأنها وضعت فيـه ثقتها ، معتمدا على بعض مسائل التقطها من كـتاب خاص لمؤلف خاص ، معتقدا صدق كل ما فيه ، متعصبا له كل التعصب ، غاضا الطرف عن الآراء الأخرى فى هذه المسائل ، وهى لأئمة أعلام مشهود لهم بالريادة العلمية منذ القدم ، وهذا المسلك مظنة لاتهـام بعض الناس لهم بأنهم غير مخلصين للـدين كـدين ، ولا فى الدعوة الى العودة اليه ، أو أن تكون هناك أيد خفيـة تـحركهم لغرض سياسى تتـخذ الدين له ستارا .

ومن المسلم به فى منهج البحث العلمى ـ والاسلامى بالذات ـ أن التعصب لرأى اجتهادى غير متفق عليه خطأ كبير ، حيث اعتقد المتعصب خطأ الآراء الأخرى من غير علم ، واحتقر بالتالى من قال بها ومارسها عمليا .

إن عمالقة الفكر الاسلامى ، كان الواحد منهم يقول :

رأيى صواب يحتمل الخطأ ، ورأى غيرى خطأ يحتمل الصواب ، وكان يأخذ برأى غيره أحيانا دون غضاضة ، هل نسى هؤلاء ، أن الحديث الشريف يثبت أن المجتهد الذى توافرت فيه شروط الاجتهاد اذا أخطأ فى اجتهاده لم يرتكب إثما ولكن يعطى ثوابا على اجتهاده ، لأنه بذل ما فى وسعه من أجل الوصول الى الحق ، والله لا يكلف نفسا إلا وسعها .

وهل نسوا أيضا قول النبى ﷺ من قال لأخيه يا كافر فقد باء بها أحدهما ، إن كان كما قال وإلا رجعت عليه » (١) .

●●●

---

(١) رواه مسلم .

أهميـــة التخصص

لو أنصف شبابنا الـداعون بحماس الى العودة الى الـدين ولهـم تخصصات علمية ـ كالطـب والهنـدسة والزراعة مثلا ـ لتركوا ميدان التعليم الدينى والتوجيه الدقيق لمن يحسنه من المتخصصين فيه ، وتفرغوا هـم لاتقان تخصصاتهم وإفادة المجتمعات منهـا ، فهى فى أهميتها لا تقل عن التخصص الدينى ، ولنتذكر جميعا قول النبى ﷺ : « إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة » قيل : وكيف إضاعتها ؟ قال : « اذا وسد الأمر الى غير أهله فانتظر الساعة »[1] .

من الغريب أن المتخصصين فى فرع علمى لا يقبلون مزاحمة غيرهم لهم فيه ، لا فى الممارسة ولا فى مجـرد اللقب ، فكيف يستسيغون مزاحمتهـم للمتخصصين فى المعرفة الدينية ؟ هل العلم الدينى بهذا الهوان الـذى يسومـه كل مفلس ؟ لست بهذا داعيـا الى ما يسمى باحتكار الدين ، أو الى خلق كهنوت خاص ، له الأمر

---

(١) رواه البخارى .

والنهى والتحكم فى مصائر الناس، ولكن أدعو الى العلم الصحيح ، وبعد اتقانه والاطمئنان الى كفاءة المتعلم ، يكون له الحق كل الحق فى تعليم غيره ، وتولى قيادة التوجيه ، شأن أى تخصص آخر ، هو حق لكل راغب فيه ، بعد التعلم والاستعداد له ، بالأساليب التى اتفق عليها القائمون على مناهج التعليم .

وبهذا يظهر خطأ من يرددون هذه العبارة : « الدين للجميع » ولا يحددون المعنى المراد منها ، فاذا كان المراد بلفظ الدين هو التدين ، أو تطبيق تعاليم الدين، والتعبد لله به ، فالجميع مكلف بذلك ، وليس هذا حقا بل هو واجب ، فالدين جاء هداية لجميع الناس ، لا لقوم مخصوصين ، أما اذا كان المراد بهذه العبارة وهى : « الدين للجميع » هو علم الدين ، فعلم الدين يحتمل وجهين ، الوجه الأول هو تعلم الدين ، وذلك حق للجميع ، بل هو واجب وجوبا عينيا ، أو كفائيا على الوجه الذى وضحه العلماء ، ويمكن الرجوع اليه فى كتاب العلم فى : « إحياء علوم الدين » للإمام أبى حامد الغزالى ، حيث ذكر أن كل مكلف عليه أن يعرف من دينه المبادىء الأولى ، التى يصحح بها عقيدته ، ويعرف واجبه نحو ربه ومجتمعه ، والوجه الثانى هو تعليم الدين ، وذلك على إطلاقه ليس للجميع ، بل هو

خاص بمن تعلموه وفهموه جيدا ، فان لهم أن يعلموا غيرهم القدر الذى علموه ، بل يجب عليهـم ذلك فى بعض الأحوال ، وجوبا عينيا ، أو كفائيا ، قال تعالى : « فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون »(١).

●●●

---

(١) سورة التوبة : ١٢٢

أهميـــة التعـــاون

ألا فليعلم الناس جميعا أن كل التخصصات لازمــة لرقى المجتمع ، وبتعاونها يكون الخير ، وليس بتنازعها يستفيد المجتمع ، إن عالم الــدين يحتاج الى الطبيب ليعالج مرضه ، والى المهنــدس ليقيم له مشروعــه ، وبالمقـــابل يحتاج الطبيب والمهنــدس وغــيرهما الى من يصحح لهم عقيدتهم ، ويرشدهم الى حـكم الله فى العبادة والسلوك .

ومن الخطل والضلال أن يزعم انسان أنه يستطيع أن يفتى بصدق ، فى كل ما يعرض عليه من مسائل الدين، والطب والهندسة والكيمياء ، وغيرها ، فليس فى الدين ولا فى العقل من يعرف باسم : « أبو العريف » اللهم الا فى مقام الأعجاز .

وأذكر بهذه المناسبة أن شخصا ادعى أنه محيط بكل شىء علما ، لا يلقى عليه سؤال فى أى موضوع إلا بادر بالاجابة عليه بسرعة أذهلت كـل الحاضرين ، فاتفق جماعة أن يخترعوا اسما جمعوه من حروف ، اخترع كل منهم واحدا منها ، وكونوا منها لفظ : « خنفشار » فلما

سألوه عنه أسرع كالعادة بالجواب وقال : إنه شيء يعقد به اللبن ليصير جبنا ، واخترع شاهدا من الشعر وقال : قال الشاعر :

لقد عقدت محبتكم بقلبى
كما عقد الحليب الخنفشار

فدهش الجميع لضلاله وذكائه في هذا الضلال .

يجب أن نفهم مرة أخرى أن كل التخصصات مطلوبة ، وبتعاونها يكون الخير ، لنعيش فى سلام ، ونوجه طاقتنا الى الميادين والأنشطة المناسبة ، ومن المؤسف أن بعض الشباب يحرم على نفسه وعلى غيره أن يدرس العلوم : « المدنية » كالطب والهندسة ، معتقدا أنها علوم كفر لأنها غير دينية ، وأن المؤسسات التى تعلمها أيضا كافرة ، ثم يحاول ـ دون استعداد أصيل ـ أن يكون موجها ورائدا دينيا للناس ، وكيف يكون ذلك وفاقد الشيء لا يعطيه ؟ .

قل لى أيها «المسلم» : اذا مرضت فمن يداويك ؟ قد تقول ـ وقد قيل ـ إن الطبيب هو الله ، كما قال سبحانه على لسان ابراهيم عليه السلام : « وإذا مرضت فهو

يشفين » (١) ، وأقول لك : حفظت شيئا وغابت عنك أشياء .

صحيح أن الشفاء الحقيقى من عند الله ، وبإرادته وتوفيقه للطبيب المعالج ، لا شك فى ذلك ، ولكنه سبحانه ربط بين الأسباب والمسببات ، والرسول ﷺ نفسه - وهو فى قمة المؤمنين بهذه الحقيقة ، دعا الى التداوى ، فإن الله لم يضع داء إلا وضع له دواء ، علمه من علمه ، وجهله من جهله ، وفى ذلك روايات مختلفة مع اتفاقها على المبدأ ، وهو جواز التداوى ، بل الأمر به ، والرسول عليه الصلاة والسلام تداوى وداوى غيره بما يعرفه من عادات العرب ، وكتاب : « الطب النبوى » لابن قيم الجوزية ، فيه الكثير من ذلك .

●●●

---

(١) سورة الشعراء : ٨٠

« منـــزلة علمـــاء الدين »

من أخطر ما وجد بين العاطفيين ، أنهم صرفوا الناس عن أخذ الدين ممن تخصصوا فيه ، والداعى الى ذلك لا يخرج عن أمور :

(أ) ادعاء أن علماء الدين لا يفهمونه ، وهم وحدهم الفاهمون ، أو أن أحد العلماء السابقين أو الحاليين ، الذى يأخذون عنه ، هو الفاهم وحده للدين ، وأعتقد أن أبسط إنسان يرفض ذلك باحتقـــار ، ولا حاجـــة للاستدلال على بطلانه ، وهذا طعن فى أحـــــد طرفى الكفاءة ، وهو المقدرة العلمية .

(ب) ادعاء أنهم مغرضون مسخرون لخدمـــة ذوى السلطان البعيدين عن الدين ـ كفرا أو فسوقا ـ يحللون ويحـــرمون كما يملى عليـــهم ، ولا يقـــولون الحق لوجـــه الله سبحانه ،و هـــذا طعن فى الطـــرف الثـــانى للكفاءة ، وهو الخلق ، فجدارة العامل فى أى مجـــال تقوم على الدراية والأمانة ، كما جاء فى قول سيـــدنا

يوسف لعزيز مصر : « اجعلنى على خزائن الأرض إنى حفيظ عليم » (١) .

وكما قالت بنت شعيب لأبيها ، عن سيدنا موسى : « يا أبت استأجره ، إن خير من استأجرت القوى الأمين »(٢) ، وهذا الاتهام إن لم يكن باطلا من أصله، فهو باطل فى التعميم ، ولو صح الاتهام فى فرد أو أفراد يعدون على الأصابع ، فإنهم سينكشفون بسرعة ، وتبقى الجدارة والثقة لسائر العلماء ، الذين لا يغيب عنهم قول الله تعالى : « الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحدا إلا الله » (٣) ، فهم ورثة الأنبياء كما قال النبى ﷺ .

(جـ) أنهم يأخذون رواتبهم من خزانة الحكومة ، وهى حرام أو مخلوطة به ، فهم ينهون عن المنكر ويفعلونه، ومن هنا لا يصح الاقتداء بهم أو الثقة فى كلامهم .

وأحيل القارىء على ماذكره الامام الغزالى فى « الإحياء » عن اختلاط الحلال بالحرام ، وكيف يكون

---

(١) سورة يوسف : ٥٥
(٢) سورة القصص : ٢٦
(٣) سورة الأحزاب : ٣٩

التصرف إذا تعذر فصـــل أحدهما عن الآخر ، وأن الرسول ﷺ وأصحابه كانوا يأخذون الجزية من أهل الكتاب ، وأموالهم مشوبة بالحرام ، كالربا وبيع الخمر والخنزير ، بل كانوا يعاملون اليهود ويقترضون منهم دون حرج ٠

ثم أقول : هل الرواتب هى المحرمة فقط ؟ إن جميع الناس مؤمنهم وكافرهم ، طائعهم وعاصيهم ، يأكلون ويلبسون ويتمتعون بما توفره لهم الحكومات بطرق شتى ، من الضرائب والمعونات والاقتراض وغير ذلك، من طرق إن لم تكن محرمة ففيها شائبة التحريم ، هل المعترضون مغالطون لأنفسهـم أو لمن يتبعونهم ؟ ألا قاتل الله الجهل وهدى الجاهلين ! ٠

إن الناقمين على علماء الدين ، لأن قـلة نادرة ليست ملتزمة كما يقولون بكل ما جاء به الدين ، وبخاصة فى المظهر الخارجى ، الذى كان عليه النبى ﷺ من اللحية والعمامة ، والملابس البيضاء وغيرها ، هؤلاء الناقمون يستفيدون من علوم الكفار ، وخبراتهم ، وابتكاراتهم، واكتشافاتهم ، وهم بالطبع أسوأ حالا من المسلمـين

عقيدة ، إن لم يكن عقيدة وسلوكا ، فكيف يكون هـــذا السلوك مع علماء المسلمين .

من الذى اخترع القــاطرة والســيارة والطــائرة والطباعة ، واكتشف الكهرباء التى انتقلت بالحضارة نقلة هائلة ، تضاء المنازل ، وتبرد المشروبات ، وتحفظ الأطعمة ، وتغسل الملابس ، وتسمع الإذاعات ، وتعرض المشاهد الحية فى حينها ، منقولة من أقصى المعمــورة بالقمر الصناعى ، وما يجد من وسائل ؟

إن الذين تمت على أيديهم هذه الإنجازات لا يدينون بالاسلام ، بل منهم من هو أشد عداوة للمسلمين ، ومع ذلك نتقلب فى النعيم الذى أجراه الله على أيديهم ، ولا نرى بأسا من الإفادة والتمتع بها ، حتى فى نشاطنــا الدينى ، عبادة ودعوة بمكبرات الصوت ، وعقــــد الندوات وتسجيل المحاضرات ، وتصوير الاجتماعات، والانتقال للتبليغ ، وزيارة الأماكن المقدسة ، وطبــع الكتب والنشرات ، والإذاعة الموجهة الى أقصى البلاد .

لقد أجاب عالم قديم على مثل هذا الاتهام فقال :

اعمل بعلمى ولا تنظر الى عمــلى
ينفعك علمى ولا يضررك تقصــيرى

وكما قيل لبعض الخلفاء : إن الواالى فلانا له مخالفات سلوكية ، على الرغم من كفاءته فى عمله ، فقال : لنا علمه وعليه عمله ، استفدنا من خبرته ، والله يجازيه على تقصيره .

●●●

« الدين منهج حضارة »

إن خلق فجوة بين الناس وعلماء الدين وراءه سر خطير ، هو فى أدنى صوره دوام انغلاق الأفكار ، على ما هى عليه ، والخوف عليها من التبدد أمام الأشعة القوية من العلم الصحيح ، من أجل المحافظة على الكسب المادى أو الأدبى المزعوم .

أعود فأكرر أن فهم الدين لا يكون إلا عن طريق الدراسة العميقة لنصوصه وروحه ومقاصده وأهدافه، ولأضرب مثلا من أمثلة كثيرة نعرف منها كيف نفهم الدين على أنه منهج حضارة ، وتقدم وسعادة مثالية فى الدنيا والآخرة :

كثيرون من العامة ، أو ممن يتولون الدعوة لحل الأزمات ، عن طريق الدين ، مؤكدين هذا الشعار ، الإسلام هو الحل ، الذى بينا صدقه بما فيه الكفاية ، يستشهدون بقوله تعالى مثلا : « ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض » (١) ، وهذا حق لا مرية فيه ، لأنه كلام الله ، وأيده واقع التطبيق .

---

(١) سورة الأعراف : ٩٦

لكن يجب توضيح معنى الآية ليفهمه الناس ويطبقوه - إن أرادوا - على الوجه المطلوب ، إن الآية فيها شرطان أساسيان ، من أجل الرخاء وكثرة الخيرات ، التى تفيض من كل ناحية ، هما الإيمان والتقوى ، فهل معنى الإيمان هو النطق بالشهادتين ، والاعتقاد بالملائكة والكتب والرسل واليوم الآخر ، وسائر العقائد وكفى ؟ لا ، إن المنافقين الذين عاشوا أيام النبى ﷺ ، كانوا ينطقون بما ذكر ، بل يؤكدونه بممارسة بعض الشعائر الدينية كالصلاة ظاهرا أمام الرسول والصحابة ، ومع ذلك أكد القرآن أنهم غير مؤمنين ، قال تعالى : « ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين • يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون • فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون » (١) •

وقال : « إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله ، والله يعلم إنك لرسوله ، والله يشهد إن المنافقين لكاذبون » (٢) ، ولم ذلك ؟ لأنهم كما قال تعالى : « يقولون بأفوههم ما ليس فى قلوبهم والله أعلم بما يكتمون » (٣) •

---

(١) سورة البقرة : ٨ - ١٠
(٢) سورة المنافقون : ١
(٣) سورة آل عمران : ١٦٧

« المعنى الصحيح للإيمـــــان »

الايمان الصادق ليس ادعاء وشعارا وقولة باللسان فقط ، ولكنه إذعان بالقلب ، وانفعال به ، يظهر علـى السلوك ، دون حاجة الى رقيب من قريب أو بعيـد ، المؤمن الحقيقى لا يخشى إلا الله ، ولا يرجو ســواه ، شاكر لأنعمه راض بقضائه ، لا يذل ولا يهـون ، ولا يؤثر الفانية على الباقية « إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون • الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون • أولئك هـم المؤمنون حقا ، لهـم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم » (١) « إنمـا المؤمنون الـذين آمنـوا بالله ورسـوله ثم لم يرتابـوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله ، أولئك هم الصادقون » (٢) •

المؤمن الحق هو الذى يحس دائما بحاجته الى الله ، لا تبطره نعمة ، ولا يبعده عنه منصب ، يعقد قلبه على

(١) سورة الأنفال : ٢ — ٤
(٢) سورة الحجرات : ١٥

التوحيد المجرد ، مهما اشتدت الخطوب ، إنه صفة المخلصين لله ، المعتمدين عليه فى كل حال ، كإبراهيم عليه السلام ، الذى قال عن ربه ، كما حكى القرآن الكريم : « الذى خلقنى فهو يهدين • والذى هو يطعمنى ويسقين • وإذا مرضت فهو يشفين • والذى يميتنى ثم يحيين • والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين » (١) كان آخر ما قاله عندما ألقى فى النار - كما ثبت فى الحديث - « حسبى الله ونعم الوكيل » •

يقول العلماء : إن قوله هذا جاء على أثر قول جبريل له فى اللحظات الأخيرة قبل أن يلقى فى النار : ألك حاجة ؟ فقال له : أما الحاجة إليك فلا ، وأما الحاجة الى الله فنعم ، علمه بحالى يغنى عن سؤالى ، حسبى الله ونعم الوكيل ، ويزيد بعضهم توضيحا لذلك فيقول : قال ابراهيم لجبريل عندما عرض عليه مساعدته : أنت عبد ضعيف ، وأنا عبد ضعيف ، فكيف يعتمد الضعيف على الضعيف ؟ وسواء أكان هذا التوضيح وقع حقيقة أم كان بلسان الحال لا بلسان المقال ، فان نتيجة التوحيد الخالص كانت فى قوله تعالى : « يا نار كونى بردا وسلاما على ابراهيم » (٢) •

---

(١) سورة الشعراء : ٧٨ — ٨٢
(٢) سورة الانبياء : ٦٩

وبعيدا عن ساحة الأنبياء ، الذين هم المثل العليا في قوة الايمان ، وصدق اليقين ، وتأييد الله لهم بخوارق العادات ، يحكى التاريخ ان أهل قرطبة بالأندلس أصابهم قحط ، احتاجوا معه ـ كما هى السنة ـ الى صلاة الاستسقاء ، فخرجوا الى الخلاء ، ومعهم الأطفال والبهائم وسائر الضعفاء ، وطلبوا قاضى المدينة ، وهو « أبو سعيد البلوطى » أن يخرج معهم ليؤمهم فى الصلاة ويشاركهم الدعاء والتضرع الى الله ، فسألهم : هل خرج معكم كل من فى المدينة ؟ فقالوا : ما بقى فيها إلا المترفون الذين لا يعانون كما نعانى ، فاقسم ألا يخرج معهم حتى يخرج هؤلاء ، فلما ذهبوا إليهم وعادوا الى البلوطى أخبروه بخروجهم ، فاستعد للخروج ونادى على غلامه أن يحضر له الممطر ـ أى الكساء الذى يقى من المطر ، فقالوا له : وهل أيقنت أن السماء ستمطر ؟ قال نعم ما دام هؤلاء قد خرجوا ليشاركوكم التضرع الى الله : « إذا خضع جبار الأرض رحم جبار السماء » .

هذه بعض المظاهر التى تدل على أن الايمان الصادق هو الذى تفتح على أساسه البركات من السماء والأرض ، وليس هو مجرد النطق بالشهادتين ، مع انعدام معناه الحقيقى فى النفوس .

حقيقـــة التقـــوى

أما التقوى التى هى الشرط الثانى مع الايمان بالله لفتح البركات فليست هى ـ كما فى مفهوم كثير مـن العامة ـ العبادات المعروفة ، من صلاة وصيام وزكاة وحج ، وقراءة القرآن والذكر والدعاء ، والاعتكاف فى المساجد فقط ، وما عدا ذاك من أنشطة خيرية لا تدخل فى نطاق التقوى، لا ، إن التقوى بمفهومها الصحيح ، هى امتثال الأوامر واجتناب النواهى ، وهذه كثيرة تتعدى الدائرة المذكورة من العبادات ، فتشمل الأخلاق الشخصية ، والاجتماعية ، والعمل المنتج ، الذى تعف به النفس عن المذلة ، والاستجداء والاستدانة ، وتشمل بر الوالدين ، ورعاية الأولاد ، وحسن العشرة الزوجية وصلة الأرحام ورعاية حقوق الجـوار ، والأصـــدقاء والرؤساء والعاملـين ، وما الى ذلك من كل نشـاط خيرى .

جاء فى الحديث الصحيح :« على كل مسلم صدقة»(١) وليست هى الزكاة فقط ، أو دفع مال لمحتاج ،ولكنها

(١) رواه البخارى ومسلم .

كما جاء في الحديث الصحيح : « وكل معروف صدقة » (١) كما أن البعد عن كل المحرمات الظاهرة والباطنة ، الشخصية والاجتماعية ، يدخل في مفهوم التقوى والصدقة كما صح في الحديث : فإن إمساكك عن الشر صدقة » (٢) فالتقوى سلوك كامل ، يقوم على فعل الخير ، والبعد عن الشر .

لو أن التقوى فهمت فهما صحيحا ، وطبقت على الوجه الصحيح ، لجاءت البركات من كل جانب ، ولكن من المؤسف أن كثيرا من المسلمين اليوم - لقلة حصيلتهم العلمية أو عدم وضوحها - ومن يحرصون على التقرب الى الله والتمسك بالدين ، يركزون في التقوى على جوانب خاصة منها ، وترك الجوانب الأخرى ، التى قد تكون أهم - أو على الأقل مساوية لها في الأهمية - فيرضى أحدهم مثلا بالصدقة تعطى له ، مع قدرته على الكسب ، مكتفيا بالخلوة والتعبد في المساجد والزوايا ، بالصلاة والذكر والقراءة للقرآن والأوراد ، مرددا لتبرير خطئه - قول الله تعالى: «وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون . ما أريد منهم من رزق وما أريد

---

(١) رواه البخاري .
(٢) رواه البخاري ومسلم .

أن يطعمون ٠ إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين » (١) مؤولا إياه بأن المطلوب من العبد هو العبادة ـ بمفهومه هو ـ فالله ما خلقه إلا لها ، ولا شأن له بالرزق ،فقد تكفل الله به ، مؤكدا هذا الفهم بقوله تعالى : « وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها » (٢) ٠

وهذا خطأ جسيم فى فهم الآيات ، فالله سبحانه طلب من الجن والإنس أن يعبدوه وحده ، لم يطلب منهم فى مقابل ذلك رزقا يقربونه اليه ليأكله ويعيش عليه ، كما كان المشركون يقربون القرابين لآلهتهم ، فهو سبحانه غنى غير محتاج لشىء ، لأنه هو الذى يعطى الرزق لغيره ، وقوى لا يحتاج الى معونة أحد من خلقه قال تعالى : « يا أيها الناس أنتم الفقراء الى الله والله هو الغنى الحميد»(٣) وقال : «قل أغير الله أتخذ وليا فاطر السموات والأرض وهو يطعم ولا يطعم (٤) ٠

وقال فى السعى لتحصيل الرزق الذى تكفل الله به : « هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه » (٥) إن القارئين لبعض النصوص

---

(١) سورة الذاريات : ٥٦ ــ ٥٨
(٢) سورة هود : ٦
(٣) سورة فاطر : ١٥
(٤) سورة الأنعام : ١٤
(٥) سورة الملك : ١٥

متغاضين أو جاهلين النصوص الأخرى التى توضحها، مخطئون ، كمن يقرأ فقط : « فويل للمصلين » أو : « لا تقربوا الصلاة » .

لقد صحح النبى ﷺ مفهوم العبادة والجهاد والتوكل على الله ، لجماعة من أصحابه ، غابت عنهم المعانى الصحيحة لها ، فعن كعب بن عجرة قال : مر على النبى ﷺ رجل فرأى أصحابه من جلده ونشاطه فقالوا : يا رسول الله ، لو كان هذا فى سبيل الله ! ! فقال لهم : « إن كان خرج يسعى على ولده صغارا فهو فى سبيل الله ، وإن كان خرج يسعى على أبوين شيخين كبيرين فهو فى سبيل الله ، وإن كان خرج يسعى على نفسه يعفها فهو فى سبيل الله ، وإن كان خرج يسعى رياء ومفاخرة فهو فى سبيل الشيطان » (١) وفى الحديث أن رجلا من أصحاب النبى ﷺ مر بشعب فيه عيينة من ماء عذبة فأعجبته فقال : لو اعتزلت الناس فأقمت فى هذا الشعب ! ! ولن أفعل حتى أستأذن رسول الله ﷺ فذكر ذلك له فقال : « لا تفعل ، فان مقام أحدكم فى سبيل الله تعالى أفضل من صلاته فى بيته سبعين عاما ، ألا تحبون أن يغفر الله لكم ويدخلكم الجنة ؟ اغزوا فى سبيل الله ،

---

(١) رواه الطبرانى بسند صحيح .

من قاتل فى سبيل الله فواق ناقة وجبت له الجنة»(١) وفواق الناقة - بضم الفاء - هو ما بين رفع اليد عن ضرعها عند الحلب ووضعها ، وقيل : ما بين الحلبتين.

أقول : لعل هذا كان فى وقت يحتاج فيه الرسول ﷺ الى الجهاد ، لأنه فى حرب قائمة ، أو حرب متوقعة (حالة حرب) فالكل لابد أن يكونوا مشاركين فيها ، أو مستعدين لها أما فى وقت السلم وهدوء الحال ، فان الإقبال على العبادة خير ما يمضى به الانسان وقته ، وعليه يحمل قوله ﷺ : « ألا أدلكم على ما يكفر الله به الخطايا ويرفع به الدرجات » ؟ قالوا : بلى يا رسول الله ، قال : « إسباغ الوضوء على المكاره ، وكثرة الخطا الى المساجد ، وانتظار الصلاة بعد الصلاة ، فذلكم الرباط » (٢) (ثلاث مرات) .

وبين النبى ﷺ أن الدين ليس عدوا للغنى والثراء، فقال : « نعم المال الصالح للعبد الصالح » (٣) وهناك نصوص كثيرة من هذا القبيل فى رسالتى : « الاسلام دين العمل » ، « الاسلام والتحرر من الجوع » .

---

(١) رواه الترمذى وقال حسن . والحاكم وصححه .
(٢) رواه مسلم وغيره .
(٣) رواه أحمد .

وفى القرآن الكريم نعى على الانتهازيين ، أو الجاهلين الذين يقنعون بالشعارات الظاهرة ، لينالوا كسبا دنيويا ، فقال تعالى فى الأعراب الذين سمعوا عن عطاء الرسول للمحتاجين ، فوفدوا اليه يتظاهرون بالايمان من أجل عطائه : « قالت الأعراب آمنا ، قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الايمان فى قلوبكم » (١) .

إن صلاح المجتمع لا يكون بالفهم الخطأ للايمان والتقوى ، يكفى أن أذكر الحديث الذى يقول : « بينا رجل يمشى بفلاة من الأرض فسمع صوتا فى سحابة : اسق حديقة فلان ، فتنحى ذلك السحاب فأفرغ ماءه فى حرة - أرض بها حجارة سوداء - فاذا شرجة - مسيل الماء - من تلك الشراج قد استوعبت ذلك الماء كله فتتبع الماء فاذا رجل قائم فى حديقته يحول الماء بمسحاته - فأسه - فقال له : يا عبد الله ما اسمك ؟ قال : فلان ، للاسم الذى سمع فى السحابة ، فقال له : ياعبد الله لم تسألنى عن اسمى ؟ فقال : إنى سمعت صوتا فى السحاب الذى هذا ماؤه يقول ، اسق حديقة فلان لاسمك ، فما تصنع فيها ؟ فقال : أما إذ قلت هذا فانى أنظر الى ما يخرج منها ، فأتصدق بثلثه وآكل أنا وعيالى ثلثه ،

---

(١) سورة الحجرات : ١٤

وأرد فيها ثلثه » (١) .فتولى الرجل ولسان حاله يقول: بهذا استحققت أن يذكر اسمك فى السحاب ، ما دمت قد شكرت الله على النعمة ولم تنس الفقراء من عباد الله الذى أمدك بالماء من حيث لا تحتسب .

اقرءوا ما يؤكد أن التقوى مفهومها أوسع ، وأن العبادة لا قيمة لها أن لم تثمر سلوكا حسنا مع النفس ومع الغير ، قال تعالى : « أرأيت الذى يكذب بالدين. فذلك الذى يدع اليتيم . ولا يحض على طعام المسكين. فويل للمصلين . الذين هم عن صلاتهم ساهون . الذين هم يراءون ويمنعون الماعون » (٢) . فالذى نزعت الرحمة من قلبه فيكره اليتيم ويقسو عليه ، ولا يساعد المحتاج حتى بمجرد التوجيه لمساعدته ، هو كالكافر الذى يكذب بالبعث يوم القيامة ، لأنه نسى المساءلة على النعمة التى أعطاه الله إياها ، ونسى واجبه نحو الضعاف والمحتاجين ، فهم عيال الله ، فعاش لنفسه فقط .

إن صلاتهم التى يصلونها ناسين حكمتها من التنزه عن الفحشاء والمنكر ، ويؤدونها أداء شكليا خاليا من الروح

---

(١) رواه مسلم .
(٢) سورة الماعون : ١ ـــ ٧

من أجل أن يقول الناس عنهم ، لافتتانهم بالشعارات : إنهم صالحون ، وكثيرا ما يسهون مشغولين بالدنيا ، هذه الصلاة مردودة عليهم ، وسيلقون عذابا شديدا ، لأنهم يمنعون مساعدة المستعينين بهم ، وهم قادرون عليها .

ويوضح هذه الصورة قول الله تعالى فى الحديث القدسى : « إنما أتقبل الصلاة ممن تواضع بها لعظمتى ولم يستطل على خلقى ، ولم يبت مصرا على معصيتى وقطع النهار فى ذكرى ، ورحم المسكين وابن السبيل ورحم المصاب ... » (١) .

هذه هى وسائل فيض البركات من السماء والأرض، عقيدة صحيحة نظيفة قوية ، وحركة مدفوعة بها لتنتج الخير فى كل ميدان ، ثقة بالله واستمداد للعون منه ، وتراحم وتعاون وجد ونشاط ، لا ادعاء ولا تظاهر ، ولا عجز ولا تواكل ، ولا كسل ولا تراخى .

فلا بد من فهم الدين فهما صحيحا على يد المتخصصين الفاهمين بصدق ، والباب مفتوح لكل من يريد التعمق فى دراسة الدين ، والوسائل متعددة ، والمهم هو الرغبة الصادقة .

---

(١) رواه البزار ، ورواته ثقات ما عدا عبد الله بن واقد الحرانى.

إن التصور الصحيح للدين قبل ممارسته وتطبيقه ، هو الخطوة الأولى على طريق النهوض بالمجتمع الانسانى ، ومن أجل هذا أرسل الله الرسل لإرشاد الناس الى الطريق المستقيم : « رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل » (١) .

وكانت أول مادة فى دستور الرسالة الاسلامية لإخراج الناس من الظلمات الى النور ، وانتشالهم من هوة الضلال المبين ، آية تتحدث عن العلم ، وأهم وسائل الحصول عليه ، بالكتابة بالقلم ، والقراءة والاطلاع : « اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذى علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم » (٢) .

والقرآن كله علم تصحح به العقيدة ويقوم السلوك. قال تعالى : « وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون . أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا وإن كنا عن دراستهم لغافلين . أو تقولوا لو أنا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم فقد

---

(١) سورة النساء : ١٦٥.
(٢) سورة العلق : ١ ــ ٥

جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة » (١) . وقال :
« وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » (٢)

إن ممارسة التدين بدون تصور صحيح له ، تخبط وضلال ، تماما كالذين ينادون بالحرية والديمقراطية والمساواة جاهلين أن لكل منها حدودا وضوابط وآدابا تحكمها وتوضح معانيها الصحيحة ، إنهم ينادون بها ولاحظ لهم من فهمها إلا الانطلاق والتحلل والسباب ، والإقذاع وتسفيه آراء المخالفين ، والتعصب والغرور ، وإهدار القيم الأدبية ، بعدم إنزال الناس منازلهم وتقديرهم قدرهم .

والنصوص كثيرة فى منافاة ذلك للدين ، لأنهم فهموه خطأ واستغلوا شعاره استغلالا سيئا ، كالقولة المشهورة عند الغرب : مظلومة أيتها الحرية ، كم باسمك ارتكبت جرائم ! !

ثانيا ـ الحال :

هذا التعبير المتعارف عليه عند المشتغلين بالتصوف

(١) سورة الأنعام : ١٥٥ ـ ١٥٧
(٢) سورة الاسراء : ١٥

علما وعملا ، يراد به الوجدان الذى يحس الانسان أثره فى قلبه ارتياحا أو نفورا ، وقد يعبر عنه بالاقتناع فى المفهوم الجارى بين الناس الآن ، وهذا الحال هو الخطوة التالية للعلم والتصور ، والافتناع المعول عليه، سواء آكان بالقبول أم الرفض ، يجب ان يكون نابعا من داخل النفس ، والتكيف بما انتهى اليه العلم والتصور ، لا شكلا ظاهريا للوصول الى غاية يكثر أن تكون عاجلة ووقتية ، ولا أمرا مكرها عليه تحت ضغط أو تهديد ، أيا كان مصدره ، فالأول نفاق عارض ، يدوم ما دام الإغراء موجودا ، والتمويل مستمرا ، والآمال الوردية تخلب الألباب ، فإذا انقطع ذلك عاد المنافق سيرته الأولى كما يقول القائل :

صلى وصام لأمر كان يطلبه
لما انتهى الأمر لا صلى ولا صاما

والثانى ليست له القوة الثابتة ، فالمكره يحاول التملص من سبب الإكراه ، كالعضو الغريب يراد به ترقيع الجسم ، لا يلبث أن يرفضه ، وعند زوال الضغط يعود المكره الى ما كان عليه من قبل ، كالمسوقين بعصا الثورات التى تسيطر عليها روح الانتقام ، لا إرادة الاصلاح من أجل الاصلاح ، كما هو مشاهد فى عصرنا ،

فى بلاد سيطر عليها الضغط زمنا ، فتولد عنه الانفجار ، الذى أعاد للإنسان حريته وكرامته ، بعد أن ظل حينا كالترس فى الآلة ، يتحرك أوتوماتيكيا لا حول له ولا قـــوة .

إن الاقتناع الحقيقى هو النتيجة للدراسة المتأنية ، لجدوى العودة الى الدين ، نعم لا بد من الاقتناع بهذه الصورة ، لينزل التصور الذهنى المعلوم بالعقـــل ، ويستقر فى القلب ، ويهبط المدرك من الفكر الى الوجدان والذى يخلق فينا هذا الاقتناع عدة أمور أهمها ثلاثة : شهادة النقل ، وشهادة العقل ، وشهادة الواقع .

(أ) النقـــل :

أما النقل فيكون بالرجوع الى النصوص التى تثبت أثر الدين فى الرقى ، وأصحها ما جاء فى القرآن الكريم، والسنة النبوية الشريفة ، فما فيهما حق لا مرية فيه ، وبخاصة ما كان قطعى الثبوت والدلالة ، قال تعالى : « ومن أصدق من الله حديثا » (١) ، وقال : « ومن أصدق من الله قيلا » (٢) ، والرسول ﷺ صادق فيما نسب اليه بحق ، لأن الصدق من الصفات الأساسية للرسل كافة .

---

(١) سورة النساء : ٨٧

(٢) سورة النساء : ١٢٢

ومن النصوص - وإن كان قد مر بعضها - قوله تعالى فى شأن الدين بوجه عام : « فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى » (١) وقوله : « ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض » (٢) واذا أريد بالقرى ما سبق ذكرها فى السورة ، من القرى التى أرسل اليها نوح ، وهود ، وصالح ، ولوط ، وشعيب ، فان اللفظ عام يشمل كل الرسل ، وكل الأقوام الذين أرسلوا اليهم ، وقوله : « وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا » (٣) وقوله : « من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ، ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » (٤) .

وعن الدين الاسلامى بالذات : « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم آمنا » (٥)

---

(١) سورة طه : ١٢٣
(٢) سورة الأعراف : ٩٦
(٣) سورة الجن : ١٦
(٤) سورة النحل : ٩٧
(٥) سورة النور : ٥٥

وقوله : « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين • يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور باذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم » (١) وقول النبى ﷺ : « تركت فيكم ما إن تمسكتم به فلن تضلوا بعدى أبدا ، كتاب الله وسنتى » (٢) .

(ب) العقـــل :

وأمـا العقل فإن الاقتنـاع بفائـدة الـدين يـكون بدراسة مبادئه دراسة واعية ، مع مقارنتها بالمبادىء التى اتفق عليها الفلاسفة والمصلحون ، وقامت عليها الحضارات الكبرى ، وسنرى من هذه الدراسة المقارنة، أن ما جاء به الاسلام أصدق وأحكم وأوفى وأشمل ، إن هذه الدراسة تحتاج ـ لتـكون ميسرة ومقنعـة ـ الى استخـراج المبـادىء أولا ، وتصنيفها فى مجموعـات نوعية ، كالعقائد والعبادات ، والأخلاق والمعاملات ، وأصول الحضارة وما اليها ، ثم التعبير عنها بأسلوب يشابه أو يقارب الأساليب الحديثة ، ذلك لأن أسـلوب

---

(١) سورة المائدة : ١٥ ، ١٦

(٢) رواه الحاكم وصححه وروى مثله الطبرانى باسناد جيد .

القرآن بالذات ـ وهو معجز ـ فهمه المعاصرون لأنه نزل بلغتهم ، لكن اللغات تتلاقح ، والأساليب تتغير ، والمفاهيم أيضا قد تتغير بتغير العرف والاصطلاح .



أسلوب العصر

ولكى نؤكد أن القرآن هداية للعصر الحاضر ـ كما كان هداية للعصر الماضى بناء على عالميته فى العموم والخلود ـ لابد من تقريب معانيه الى الناس اليوم ، واستخدام تعبيراتهم وأساليبهم بمفهومها الصحيح ، ليستطيعوا فهمه بقدر أكبر ، وهذا أمر يحتاج الى مهارة فائقة فى استنباط المبادىء أولا ، ثم فى التعبير المطلوب عنها ثانيا .

وبحمد الله يوجد فى العلماء المعاصرين من عنوا بذلك واسترشدت أنا بما وصلوا اليه فى كتابى : « الدعوة الاسلامية دعوة عالمية » ووفقنى الله الى الحديث المستفيض عن مقومات هذه الدعوة ، وإثبات تفوقها على مقومات الديانة العالمية ، التى اقترحها فلاسفة العصر ، كقيمة العقل وأهمية العلم ، والحرية والمسئولية والنزوع الى الكمال ، والمساواة والعدالة ، والتعاون والتعايش السلمى ، مع التركيز على مراعاة الطبيعة البشرية فى التشريع ، بالتوفيق بين مطالب الروح والجسد ، ويسر التكاليف ، ووفاء التشريع بكل قطاعات

الحياة ، وصلته القوية بالحضارة والمدنية والتطور ، وما الى ذلك من المبادىء التى جاءت بها نصوص الـدين ، وشرحها علماء الاسـلام ، وطبقها المسلمون تطبيقـا صحيحا .

كما وفقنى الله فى محاولة تقريب معانى الدين للفهم، باستخدام الأسلوب الحديث بقدر المستطاع ، وذلك فى كتابى : « من نور القرآن الكريم » ففيه نماذج جديدة من أساليب الربط بين الدين والحياة ، تتحـدث عن مقومات الزعامة فى شخصية الرسول محمد ﷺ ، ومثل رائدة من حياة المصلحين فى شخص سيدنا شعيب عليه السلام، وإعداد القادة فىمدرسة النبوة، والمنهج التربوى فى تشريع الصيام، ومنزلة العمل، ونظام إدارة الأعمال ومنهج النقد السليم ، وإعجاز القرآن فى دقة التخطيط، ولقمان الحكيـم وسياسة التعليـم ، وغـير ذلـك من الموضوعات فى هذا الكتاب وغيره .

وكذلك قام كثيرون غيرى بجهود كبيرة فى هذا المجال ممن دفعتهم تخصصاتهم الى الربط بينها ، وبين القرآن والسنة بالأسلوب الحديث ، وفى أحاديث قصيرة مركزة جدا اتبعت هذا المنهج ، وجمعتها فى كتاب بعنـوان :

« منارات على الطريق » جعلت هذا الكتيب تقديما له ، وأرجو أن يرى النور فى وقت قريب إن شاء الله .

أعتقد أن استعمال الأسلوب الحديث ـ والناس فيه مواهب ودرجات ـ فى محاولة الربط بين الدين والحياة، يجعل الذين تثقفوا ثقافة بعيدة عن الدين ولا يتحمسون للدعوة الى العودة اليه كمنهج حياة ، حيث لا يصلح فى زعمهم إلا للعصور التى نزل فيها ، والعقول فى رقى، والحياة فى تطور ـ يجعل هؤلاء يعيدون النظر فى فكرتهم عن الدين، وقد ينقلبون ـ اذا هداهم الله ـ دعاة متحمسين اليه ، لأنهم أحسوا حلاوته ، وبخاصة عندما يقارنون مبادئه بما تعلموه على غير مائدته .

لكن مع تشجيعى لهذا الأسلوب أحذر من الاسراف فيه ، بمثل تفسير النصوص بكل مستحدث جديد ، مما لا يزال فى دور النظرية ، وفى حقل التجربة ، ففى ذلك خطورة على الدين نفسه فى فهمه ، عندما يظهر فساد هذه النظريات ، وعقم هذه التجارب ، وهذا ذنب لا يغتفر لمن يتحمسون للدين على غير وعى وحذر ، وحسابهم على الله بقدر نياتهم ، وقد وضحت هذه النقطة فى كتابى : « دراسات إسلامية لأهم القضايا

المعاصرة » حين تحدثت عن العلاقة بين الدين والعلم، وعن القرآن والمكتشفات الحديثة •

قلت : إن الدارس للدين بنصوصه فى القرآن والسنة، لابد أن يكون من طراز ممتاز فى الأخذ بالقديم والحديث معا ، ومزجهما فى شراب سائغ يروى ظمأ الظامئين ، لمعرفة حقيقة هذا الدين ، ومدى تجاوبه مع العصر ، وفى دواء ناجع يزيل مرض الشاكين فى كون مبادىء الاسلام تصلح للتطبيق فى عصر الذرة وغزو الفضاء ، ولهذا أرى أن توضع فى مناهج التعليم الدينى أو فى تخصصات الدعوة على الأقل مواد ثقافية عن الحياة التى يعيشها الناس ، فى الكيمياء والطبيعة ، والجغرافيا والتاريخ ، والفلسفة وغيرها ، والتسلح أيضا بلغة أجنبية أو أكثر ، كنافذة أو مفتاح ، للاطلاع على الثقافات العالمية ، وأخذ ما يساعد منها على فهم الدين وتوضيح حقائقه ، وعرضه على الناس ، وبخاصة غير المسلمين ، ومن يتجهون الى العلمانية ، وعدم الالتزام بدين •

واذا رأيت ذلك فليس معناه أن تطغى هذه العلوم

والمعارف على أساسيات التعليم الدينى ، أو تزاحمها حتى تزيل صبغة التخصص الذى قامت عليه الجامعات الدينية مئات السنين ، ولقد كان النظام السابق على قانون تطوير الأزهر رقم ١٠٣ لسنة ١٩٦١ م يعنى بالدراسات الحديثة ، بالقدر الذى يساعد على الرؤية الصحيحة لعلوم الدين ، التى كانت تدرس دراسة حفظت لهذا المعهد تخصصه ، وألبسته ثوبا يعيش به مع العصر ، وخرجت دعاة ممتازين ٠

وأنبه الى أن دراسة العلوم الدينية الموروثة بأسلوب معاصر ، أو مع معارف حديثة ، لا أعنى بها تطويع الدين للعصر ، كما تنادى به بعض الحركات فى بعض البلاد الاسلامية ، فإن العصر فيه الخير والشر ، والدين حاكم موجه لا محكوم موجه ، فكل الأديان جاءت لتطويع الفكر والسلوك السائدين فى زمانها الى ما تنزلت به من عقيدة صحيحة وسلوك مستقيم ٠

ولئن كان فى دين الاسلام فروع اجتهادية ، اختلفت فيها آراء الفقهاء ، وثبتت صلاحية رأى منها لتجاوبه مع الظروف القائمة ، فلا مانع من الأخذ به حتى لو كان مرجوحا ، أى قالت به قلة من العلماء المجتهدين ،

بناء على أدلة معتبرة ، أما الأصول فلا يجوز تجاوزها مطلقا فى الحلال والحرام ، فهى العمد الأساسية للدين، وبخاصة عند عدم الضرورة التى يباح من أجلها المحظور .

●●●

تحـــــذير

لا يجوز التساهل أو الاسراف فى هذه الرخصة ، وبخاصة فى تحليل الحرام لمجرد وجود الحاجة ، فان الحاجة لا ضابط يحدها ، تختلف من شخص لشخص ، ومن عصر لعصر ، ومن بيئة لبيئة ، ولم يعتبر أكثر العلماء الحاجة الملحة مبرراً لارتكاب المحظورات ، وبخاصة اذا كانت المحظورات من الدرجة الأولى ، وهى الكبائر التى أهلك الله بها أمما ولعنها ، لتورطهم فيها ، واستساغتهم لها ، وتحايلهم بالمنطق الخادع على التملص من عقوبتها ، بمثل قول بعض أهل الكتاب فى حل أكل الربا وأكل أموال الناس بالباطل : « ليس علينا فى الأميين سبيل » (١) .

والحديث المتفق عليه فى أن الحلال بين والحرام بين ، ذكر أن بينهما أمورا مشتبهات ، تخفى على كثير من الناس ، وحذر من الاستهانة بها ، لأنها ستجر الى الحرام الواضح ، الذى لا شبهة فيه ، والنفس أمارة بالسوء ، فقال : « فمن حام حول الحمى يوشك أن يقع

---

(١) سورة آل عمران : ٧٥

فيه » وعلى هذه الشاكلة بين القرآن خطورة استخدام الآيات المتشابهة لغرض شخصى لا يخدم الدين ، : « هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات ، فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله »(١)

ويتحايل بعض من فى قلوبهم مرض ، للأخذ بأحد المعنيين ، اللذين يحتملهما النص القرآنى ، غافلا أو متغافلا عن النصوص الأخرى التى توضح المراد منه ، بل ومضربا عن السنة النبوية التى تبين المراد من النص المتشابه ، إما رفضا للأخذ بغير القرآن ، وإما رفضا لغير المتواتر من السنة ، مع تحكيم الرأى فى معنى المتواتر ، وبمثل هذا الأسلوب الذى يتلاعب بالنصوص ، يخشى أن يجعل المعروف منكرا ، والمنكر معروفا ، وهنا يضرب الله القوم بفتنة تدع الحليم حيران كما روى فى الحديث .

ويتأكد عدم الأخذ بالمتشابه اذا كان هناك مخرج حلال ظاهر الحل ، وفيه اليسر كل اليسر ، فما نهى الله سبحانه عن أمر إلا لحكمة ، وفى الوقت نفسه ، بين لهم البديل عما نهى عنه ، بل وسع فيه وأكثر منه ، فالأصل هو الحل ما لم يرد ما يحرم ، على اختلاف الآراء

(١) سورة آل عمران : ٧

فى عموم ذلك، والله سبحانه خلق لنا ما فى الأرض جميعا وسخرها لنا لنحقق الخلافة فيها ، وما حرم من ذلك فهو قليل جدا ، وهو لوقاية النشاط الحلال من الانحراف .

أعود فأقول : إن الإلمام بالثقافة الحاضرة من أجل الفهم الصحيح للدين ، وسهولة الدعوة اليه ، أمر مشروع قد يصل الى حد الوجوب عند الضرورة اليه ، ومما يدل على مشروعيتها تنويه القرآن بشأنها كوسيلة من وسائل تعميق الايمان بالله ، وحسن استخدام نعمه ، التى طلب أن نشكره عليها ، قال تعالى : « ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ، ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود . ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك ، إنما يخشى الله من عباده العلماء » (١) .

إن الاقتناع بالدين عن طريق العلم الصحيح بالوسائل المختلفة قديمها وحديثها ، جعل المؤلفين القدامى فى فروع العلم المختلفة ، كالطب والفلك ، يستشهدون بآيات من القرآن على صحة ما يقولون به ، استنباطا أو نقلا عن غيرهم ، بمعنى أنهم ربطوا بين الدين والعلم الثابت ، ليحس المتعلم أن الدين ليس ثقافة غريبة ،

---

(١) سورة فاطر : ٢٧ ، ٢٨

أو منهجا لا يصلح للتطبيق فى غير العصر الذى نزل فيه .

(جـ) الواقع :

بعد المقارنة بين مبادىء الاسلام والمبادىء الأخرى كوسيلة من وسائل الاقتناع ، يأتى الواقع شاهدا على وجوب العودة الى الدين ، إن الواقع ينطق بأعلى صوته ، أن الدين كان له أثره الواضح فى اخراج الناس كافة من الظلمات الى النور ، حين تمسك به المسلمون الأولون ، عقيدة وسلوكا ، وذلك بقيام دولة فى قلب الصحراء ، حملت مشعل الحضارة الى الناس فى كل مكان ، وعاشت زمنا سطر فيه التاريخ على صفحاته سطورا من نور لهذه الدولة الجديدة ، التى أزالت عن عرش الصدارة أعظم دولتين فى ذلك الزمان ، هما دولة الفرس والرومان ، وذلك فى زمن وجيز ، يعتبر نقطة إعجاز فى التاريخ .

فالتمسك بالدين هو الذى خلق الأمة الاسلامية ، وأقام دولتها العظيمة ، ونهض بالعرب الذين كانوا من قبل فى ضلال مبين ، وضعف التدين هو الذى وضع المسلمين الآن فى مؤخرة الدول ، بعد أن ذاقوا الكؤوس المرة أيام الاستعمار بالذات ، وما يزالون يتجرعونها

الى اليوم ، كما قال الامام مالك : لا يصلح آخر هــذه الأمة إلا بما صلح به أولها •

إن التجربة الناجحة للإسلام فى عهـوده الزاهرة ، تثبت أنه كفيل بإيجاد حيـــاة طيبـــة فيها كل ألوان الكمال ، والعالم المتحضر الآن ما يزال يعيش على تراث العرب والاسلام ، ذلك التراث الذى أنشئوه أو هذبوه ونقلوه الى غيرهم ، فكتب الطب الاسلامى ما يزال لها شأنها فى جامعات أوروبا ، وكولومبس الذى اكتشف أمريكا سنة ١٤٩٢ م قيل له : ما الذى جرأك على القيام بهذه المغامرة ؟ فقال : قراءتى لكتب ابن رشد •

إن قانون فرنسا الذى يقبس منــه كثير من المسلمين اليوم ، أساسه مأخوذ من فقه الامام مالك ، رضى الله عنه ، الذى كان منتشرا فى غربى أفريقيا والأندلس •

ويعجبنى فى هذا كتاب : « سجريد هونكه » الذى يؤكد من عنوانه ، أن شمس العـــرب هى التى أنارت أوروبا ، وقول كاتب فرنسى : كانت مصيبة كبرى انهزام عبد الرحمن الغافقى أمام : « شارل مارتل » فى موقعة : « بواتييه » سنة ١١٤ هـ (٧٣٢م) فقد تأخرت بهـــذه الهزيمة حضارة أوروبا ثمانية قرون •

اذا كانت قراءة التاريخ تخلق الاقتنـــاع بضرورة العودة الى الدين ، فليس ذلك قاصرا على التــاريخ الاسلامى ، فالتاريخ العام يؤكد هذه الحقيقة ، حيث نجى الله المؤمنين بالرسالات وأكرمهم ، وعذب الكافرين وأهلكهم ، قال تعالى فى هؤلاء المكذبين : « فكلا أخذنا بذنبه ، فمنهم من أرسلنا عليه حاصبــا ، ومنهم من أخذته الصيحة ، ومنهم من خسفنا به الأرض ، ومنهم من أغرقنا ، وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » (١) ، ودعانا الى قراءة تاريخ الســابقين والاعتبار بهم فقال : « أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كانت عاقبة الذين من قبلهم ، دمر الله عليــهم وللكافرين أمثالها . ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم » (٢) ، وقال : « لقد كــان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب » (٣) .

والذى يساعد على غرس هذا الاقتنـاع من هـــذه الطرق ، رجال متخصصون مؤمنون ايمانا صـادقا ، يبتغون بذلك وجه الله ، فتخصصهم يدفعهم الى ابتكار

---

(١) سورة العنكبوت : ٤٠

(٢) سورة محمد : ١٠ ، ١١

سورة يوسف : ١١١

أساليب متنوعة لخلق هذا الاقتناع ، وايمانهم الصادق يدعوهم الى الاجادة والاتقان ، ويقومون بهذه المهمة بكل وسيلة ، فى دور التعليم وعلى منابر الصحافة ، ووسائل الاعلام المختلفة ، والمتاحف ودور الآثار ، والنوادى والجمعيات وغيرها .

وأنبه الى أنه عند المقارنة بين الماضى والحاضر للاقتناع بوجوب العودة الى الدين ، لا بد من الدقة والمهارة والحكمة ، لبيان الظروف وتأثيرها على الأفكار والسلوك ، فلا تنقل الصورة مبتورة عن ظروفها ، فالظروف تتغير ، وبالتالى تتغير الخطط الموضوعة .

ثالثا : الإرادة :

الخطوة الثالثة لإبراز فكرة العمل الى حيز الوجود ، هى تحرك الارادة للتنفيذ ، ويجب أن نعلم أن التحرك لا يكون إلا بقوة تتغلب على المقاومة ، والقوة هنا هى الاقتناع ، ولكن هل يكفى الاقتناع لتحريك الارادة ؟ لا ، لا بد من الاطمئنان الى عدم وجود مقاومة أو ضعفها على الأقل ، حتى لا تحول دون التنفيذ ، وهذا ما يعبر عنه المفكرون بوجود المقتضى وعدم المانع ،

فإذا لم يتم العمل أو لم يشرع فيه دل ذلك على خلل في أحد هذين العاملين ، بألا يوجد المقتضى أصلا ، أو يوجد ولكنه ضعيف لا يكفي للحركة ، أو بأن يوجد مانع قوى يعوق الارادة عن التنفيذ .

●●●

المقـــــتضى

واذا لم يوجد المقتضى أو وجد وكان ضعيفا ، فالعلاج هو ايجاد أو تقوية الاقتناع فى النفس بالوسيـــلة التى تقدمت ، إن مشركى مكة عاقهم عن الايمان برسـالة النبى ﷺ جملة عوائق : منها جهلهم بضرر الشرك ، وعدم اقتناعهم بالأدلة على توحيد الله سبحانه ، ومن أجل خلق الاقتناع وإضعاف المانع ، جاءت آيات القرآن فى مكة مركزة على ايراد الأدلة الكونية والنفسية على ذلك ، فى الوقت الذى كذبوا فيه دعوى الرسالة ونزول الوحى على بشر مثلهم ، أو من طبقة ليست أهلا لهذا الشرف : « وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شىء » (١) ، « وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق ، لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا » (٢) ، «وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم » (٣) .

(١) سورة الأنعـــام : ٩١
(٢) سورة الفرقان : ٧
(٣) سورة الزخرف : ٣١

المـــانع

إن الموانع التى تحول دون العودة الى الدين كثيرة، وهى إما موانع ذاتية نابعة من الانسان نفسه ، لوقوعه تحت تأثير الهوى والشيطان ، وإما موانع خارجية ، قد تكون مادية كعدم الإمكانات ، وقد تكون معنوية كالتقليد المتحكم ، والعرف الجارى ، والاستعمار المتسلط ، وهنا يحتاج الأمر الى جهاد عنيف ضد هذه الموانع •

فجهاد الموانع الذاتية ، المتمثلة فى النفس المتسلطة بغرائزها وأهوائها ، ومساعدة الشيطان ، يكون بأخذها بتعاليم الدين لمقاومة أغرائها ، إما بالكبت إن كان يفيد وكانت عواقبه مأمونة ، وإما بتعديل مسارها ، أو باستبدال نشاط خيرى مثمر بنشاطها الضار ، على ما يقوله علماء النفس فى هذا المجال ، وهو جهاد شاق لكن نتيجته طيبة الى أبعد الحدود ، فالانسان الصالح الحر كله خير وبركة، فى أى ميدان يزاول فيه نشاطه، وفى هذا المعنى جاء قول مأثور : « أعدى أعدائك نفسك التى بين جنبيك » وجاء أيضا : « رجعنا من الجهاد

الأصغر الى الجهاد الأكبر جهاد النفس » (١) ، والكبر فى رأيى إن صدق الحديث هو كبر الجهد ، وليس كبر الأجر والثواب ، ومن أسلحة النفس فى المقاومة الحسد، كاليهود الذين كانوا ينتظرون ظهور نبى يصلح لهم شأنهم ، فلما جاء الرسول محمد ﷺ لم يستجيبوا له ، على الرغم من أنهم يعرفونه ، كما يعرفون أبناءهم بالعلامات المميزة له ، والمذكورة فى كتبهم ، ذلك لأنه عربى ، وكانوا يريدونه من بنى إسرائيل ، قال تعالى: « ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا ، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين . بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغيا أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده » (٢) .

وكذلك حسد بعض أهل مكة أن يكون نبى من غير قبيلتهم تمتاز به عنهم قال تعالى : « وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتى رسل الله ، الله أعلم حيث يجعل رسالته » (٣) قال المفسرون فى سبب نزول هذه الآية : إن أبا جهل قال : تنافسنا نحن وبنو

---

(١) رواه البيهقى بسند ضعيف .
(٢) سورة البقرة : ٨٩ ، ٩٠
(٣) سورة الأنعام : ١٢٤

هاشم ، فلما تحاذينا على الركب قالوا منا نبى ، والله لا نؤمن حتى يكون منا نبى مثلهم فنزلت .

وجهاد الشيطان المتسلط على النفس ، يكون بالتوعية بعدم الاستسلام لإغوائه ووسوسته ، واذا جوهدت النفس أولا ، حرم هو من حليف قوى ، ونصير لا يعدله نصير على ما قال رب العزة : « وقال الشيطان لما قضى الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى ، فلا تلومونى ولوموا أنفسكم» (١) وعداوة الشيطان معروفة بالنص عليها فى مثل قوله تعالى : « إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا ، إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير » (٢) .

وأقل ما يحارب به عند بدء هجومه ما جاء فى قوله تعالى : « وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم » (٣)، وإذا استطاع الانسان أن يروض نفسه ، ويتيقظ لوسوسة الشيطان ، سهل عليه الجهاد فى الميادين الأخرى ، التى تكون عوائقها خارجة عن ارادته ، ويستعان على هذا الجهاد بالتربية الدينية ،

---

(١) سورة ابراهيم : ٢٢
(٢) سورة فاطر : ٦
(٣) سورة الأعراف : ٢٠٠

التى أفاض فى الحديث عنها علماء الأخلاق والتصوف الصحيح .

وجهاد الموانع غير الذاتية إن كانت مادية ، يكون بالعمل الجاد المنتج ، ولى فى ذلك رسالة خاصة بعنوان: « الاسلام دين العمل » وإن كانت معنوية كالتقاليد ومجاراة العرف يكون بالتوعية بخطرها ، كما قال تعالى فى تكذيب الناس للرسل : « وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إناوجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون . قال أو لو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون » (١) .

وأهل مكة كانوا كذلك ، فعلى الرغم من إقرارهم واعترافهم بأن محمدا صادق أمين ، وأن القرآن معجز يدل على صدق رسالته ، لم يؤمنوا متأثرين بالقديم ، لقد قال قائلهم عند سماع القرآن من الرسول حين أوفدوه ليفاوضه على التخلى عن دعوته : إن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ، وما هو بقول بشر . ومع ذلك لم يؤمن ، لأن قومه حملوا عليه خوف أن يؤمن ، قال تعالى : « وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا ، أو لو كان

(١) سورة الزخرف : ٢٣ ، ٢٤

آباؤهم لا يعلمـــون شيئا ولا يهتـــدون » (١) ٠

والتوعية بخطورة التقليد ، تكون على أساس من الترغيب والترهيب ، بالحكمـة والموعظـة الحسنة ، وأغلب الدول الاسلاميـة المتخلفة تعـرف الصـواب ، وتقتنع بوجـوب التغيير بالعودة الى الـدين ، لـكن أغلبها تحكم بدساتير وقوانين تعودت عليها ، كجـزء أساسى من حياتها ، يصعب انتزاعهـم منها ، وبعض الشعوب تشرب الخمـر دون مؤاخـذة من أكـثر من يعيشون معهم ، أو إحساس بحرمتها لسبب أو لآخر ، ونساؤها سافرات ، تمارس أعمالا لا يوافق عليها الدين بحكم كفالة القانون للحريات وبعضها يتعامل بالـربا لعدم تحريم القانون له ، وصارت هذه الأمور تقليـدا أو عرفا جاريا لطول عهدهم بها ، والمتعرض لتغيير ذلك يتهم بالتعدى على الحريات والخروج على النظـام ، وقد تصعد التهمة فتصير خيانة للوطـن ، وشروعا فى انقلاب ، والعقوبة على ذلك شديـدة ، قد تصل الى الإعدام ، ، ومع ذلك لا يجوز أن يرضى أحدبالسكوت على المنكر ، الى الحد الذى يستمرئه الناس ، فيعدونه غير منكر ، ويعبرون باللغة العامية عن هذه المقولة : « هل عملنا شيئا غلطا » ؟

---

(١) سورة المائدة : ١٠٤

خطـــــر الاستعمار

وإذا كان المانع لارادة التغيير ، أو اتخاذ الاجراءات له ، هو الاستعمار وبطش المستبدين ، فلابد من العمل للتحرر من الاستعمـــار والتحكم بكل وسيـلة ممكنة ، ذلك أن الذين لم يتحرروا من تحكم الغير ، لا يملكون اصدار قرار العودة الى الدين بأنفسهم ، مع العلم بأن الاستعمار قد يكون مكشوفا ظاهرا ، وقد يكون مستترا خفيا ، فالمتحكم قوى ويقظ ، يحاول الضغط على البقرة الحلوب لتدر له كل ما فيها من خير ، ويقيدها بأقوى القيود ، حتى لا تفر منه الى غيره ، ويقيم الجـدران والمتاريس ويبنى القلاع والحصون ، حتى لا يسرقها منه من هو أقوى منه ، ويبث الجواسيس ، ويرصد الحركات بين المستضعفين ، ليطمئن على الجبهة الداخلية ، خشية أن يكون فيها من يمهد للتخلص من ربقة المستعمر ، وليضمن احتكار السوق ليروج فيها سلعته ...

وقد يكون من الطريف أن أنقل هذه الصورة الواقعية لحال مصر بسبب الاستعمار ، فيقول شاعر النيل حافظ إبراهيم :

عزت السـلعة الذليـلة حتى
بات مسح الحـذاء خطبـا جسـاما

وغدا القوت فى يد النـاس كاليـا
قوت حتى نوى الفقــير الصيـاما
ويخال الرغيف فى البـــعد بدرا
ويظن اللحـــوم صيـــدا حرامـــا
وبنو مصر فى حمى النيـل صرعى
يرقبون القضـــاء عـاما فعـــاما
أيهـا النيـل كيف نمشى عطـــاشا
فى بـــلاد رويت فيهـــا الأنـــاما
يرد الواغل الغــــريب فيروى
وبنــوك الـكرام تشـكو الأوامـــا
قد شقيـــنا ونحن كرمنـــا اللـــ
ـــه بعصر يكـــرم الأنعـــاما

ومن هنا كانت العودة إلى الدين ، يلزمها رفع هذا العـائق الخطـير ، والتحر من النفـوذ السيـاسى ، والعسكـرى والثقافى ، على أن يكون التحرر تحـررا كاملا من كل نفوذ ، وليس تحررا من نفوذ للوقوع تحت نفوذ آخر ، بل أن تكـون لنا شخصية مستقلـة متميزة بالإيديولوجيات الإسلامية ، فكرا وسلوكا ، والحذر ثم الحذر من التورط والانحيـاز إلى أى سلطان أجنبى ، تحت تأثير مغريات أو تهديدات نعيش معها بأسلوب

النفاق ، أو زيف الديبلوماسية المقنعة ، كالذى يعبد الله على حرف ، إن أصابه خير اطمأن به ، وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه ، والله سبحانه يقول لنبيه ﷺ : « ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم ، قل إن هدى الله هو الهدى ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذى جاءك من العلم ما لك من الله من ولى ولا نصير » (١) ، ويقول : « ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون . إنهم لن يغنوا عنك من الله شيئا ، وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض والله ولى المتقين » (٢) .

وقد قامت حركات فى العالم الاسلامى تنادى بالعودة الى الدين ، ولكن خمدت أنفاسها بقوة المستعمر ، بطريق مباشر أو غير مباشر ، لأنه يعلم أن الدين لا يرضى بالاستعباد والذل والهوان ، كما قال تعالى : « ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا » (٣) .

إن الدعوة الى العودة للدين فى هذا الجو تحتاج الى حكمة كبيرة ، كما قال الله لرسوله ﷺ : « أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ... » (٤) .

---

(١) سورة البقرة : ١٢٠
(٢) سورة الجاثية : ١٨ ، ١٩
(٣) سورة النساء : ١٤١
(٤) سورة النحل : ١٢٥

وهى ليست تعليما يقتصر على حشو الأذهان بالمعلومات فقط ، بل هى تربية تأخذ الناس على طريق الخير ، وتبعد بهم عن طريق الشر ، والتربية تغيير للسلوك ، ونتيجته تغيير الوضع العام : « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » (١) ومقومات التربية : تعليم وتطبيق ومراقبة وجزاء ، وتفصيل ذلك يطول ، ويمكن الرجوع اليه فى موسوعة : « الأسرة تحت رعاية الاسلام » فى الجزء الرابع الخاص بتربية الأولاد .

وبحكم عملى واعظا فى جهاز حكومى ، أى فى السلطة التنفيذية ، مارست الدعوة فى القاعدة العريضة ، وهى الشعب بكل تشكيلاته ومستوياته ، وبحكم اشتراكى فى السلطة التشريعية عضوا منتخبا فى مجلس الشعب سنة ١٩٨٤ م ، ومعينا فى مجلس الشورى سنة ١٩٨٩ م ، وما قمت به من فض المنازعات ، والاشتراك فى مجالس الصلح بين الأفراد والأسر ، فى قطاعات كثيرة ، بما يشبه عمل السلطة القضائية ، الحارسة للعدالة ، المنزهة عن الأغراض ، أضع خبرتى فى هذا المجال ،

---

(١) سورة الرعد : ١١

وأبدأ بالجزء الأول من الدولة ، وهو الشعب فأقـول وبالله التوفيق .

إصـلاح الشعب :

الشعب بكل أفراده وجماعاته مطلوب منه أن يطبق الـدين تطبيقا كامـلا ، أى فى العقائـد والعبادات ، والمعاملات والأخلاق ، وفى سائر المجالات ، لا ينتظـر أن يتلقى الأوامر من أحد ، فالله سبحانه وتعالى هــو الذى أمر ، ويستوى فى ذلك وجود جهة ، أو سلطـة أخرى تؤكد هذا الأمر ، وتراقب تنفيـذه ، وتجازى عليه ، وعدم وجودها ، فالآمـر والـرقيب والمجازى موجود دائما فى عقل المؤمن ووجدانه ، ويعـبر عن ذلك أحيانا بالضمير ، وهى كلمة شاع استعمالها بعد الثورة الغربية على الدين ، وتحكم رجاله فى الدولة .

ومهما يكن من شىء فان الضمير الحى المستنير ، هو نتيجة التربية الدينية السليمة ، أما الضمير المـتربى على مائدة العقل والمصالح فهو مربوط بهما ، وهما فى تغير من الشخص نفسه ، ومن الجو الذى يعيش فيه ، والمؤثرات التى تحيـط به ، فالاسـتعمار والتفـرقة العنصرية ، وبسط النفوذ ، وسباق التسلح ، كل ذلك من وحى الضمائر البعيدة عن تربية الدين .

وممارسة الدين ممارسة صحيحة ، تتبلور فى كلمة التقوى القائمة على امتثال الأوامر ، واجتناب النواهى كما سبق توضيحه ، والذى يتقى هو الله سبحانه ، الذى خلق وأنعم ، وأمر ونهى ، وتابع وأحصى ، وقرر المساءلة والجزاء : « ولله غيب السموات والأرض وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه، وما ربك بغافل عما تعملون » (١) « ألم تر أن الله يعلم ما فى السموات وما فى الأرض ، ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر هو معهم أينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة، إن الله بكل شىء عليم » (٢) الى غير ذلك من النصوص الكثيرة ، فى القرآن والسنة ، تضمنها كتابنا : « منارات على الطريق » .

وأبادر فأقول : إن إحصاء كل ما يصدر عن الانسان له وسيلته التى لا يعلم حقيقتها إلا الله ، وقد يكون مما يعبر عنه فى النصوص ، من كتابة وسمع وبصر تقريبا للأذهان ، عن الأسلوب الحقيقى ، الذى يسجل به الله سبحانه ، وما يدونه الملائكة كما قال تعالى : « أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم ، بلى ورسلنا لديهم يكتبون » (١) .

---

(١) سورة هود : ١٢٣
(٢) سورة المجادلة : ٨
(٣) سورة الزخرف : ٨٠

تصــــوير فنى

ومن التعبيرات الحديثة المألوفة لتقريب معنى الإحصاء ، والتسجيل ، أن يقال : هناك « كاميرات » تلفزيونية خفية ، مسلطة على الانسان من كل جانب ، تسجل بالصوت والصورة كل ما يقع منه ، أفلامها حساسة الى أبعد حد ، وأشعتها نفاذة الى أقصى مدى ، تسجل خلجات القلوب وما تكنه الصدور : « ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ، ونحن أقرب إليه من حبل الوريد » (١) « وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى » (٢) والذين يسجلون بها على أعلى مستوى من الفنية ومن الأمانة أيضا : « ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحدا » (٣) .

إن هذه الأفلام المسجلة « الكتب » توضع ـ كما يقول العلماء ـ فى خزانة تحت العرش لحفظها وصيانتها ، فاذا حشر الناس يوم القيامة للحساب ، هبت ريح تثيرها ، ويعرف كل تسجيل صاحبه ، فيعلق بعنقه ،

---

(١) سورة ق : ١٦
(٢) سورة طـه : ٧
(٣) سورة الكهف : ٤٩

وتناوله الملائكة إياه بيمينه أو شماله ، ثم يعرض عرضا أمينا يقرؤه صاحبه ، حتى لو كان أميا ، لا يقرأ ولا يكتب ، فيرى بنفسه صورة حياته كاملة من يوم أن كلف أو باشر التقوى ، لا يخالجه شك أو ريبة فى إضافة شىء لم يصدر عنه ، أو حذف شىء يحرص على تسجيله ، ولعل هذا التصوير الفنى يقرب الى الأذهان فهم قوله تعالى : « وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه ، ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا . اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا » (١) .

والذى عنده هذا الإيمان يلزمه أمران ، الأول عدم التقصير ، والثانى الاجتهاد فى الطاعة ، فهو لايعصى الله ، وفى الوقت نفسه يزداد إقبالا على الطاعة ، ومن مظاهر أو لوازم هذين الأمرين ، إتقان العمل واستغلال كل فرصة للإفادة منها ، فهو يعيش حياته عاملا مجدا مستقيما ، والنتيجة الحتمية لذلك هى الرخاء الشامل ، والسعادة الغامرة ، فى الدنيا والآخرة ، قال تعالى : « من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ، ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » (٢) .

---

(١) سورة الاسراء : ١٣ ، ١٤
(٢) سورة النحل : ٩٧

والمفروض أن يكون الذى عنده هذه العقيدة مثاليا، أو أقرب الى المثالية فى سلوكه ، لكن الانسان بشر يخطىء ويصيب ، فتلك طبيعته التى سوى الله عليها آدم عليه السلام : « ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزما » (١) ، ومن هنا كان الناس درجات فى السلوك ، كما قال تعالى : « ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا ، فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله » (٢) .

وبالتالى تكون نتيجة السلوك متفاوتة ، فكلما كان الفرد أو المجتمع متمسكا بدينه أقوى تمسك ، كانت الحياة متناسبة مع هذه الدرجة من التقوى ، تماما كالذى يعنى بغذائه كماً وكيفاً ، تكون قوته وقدرته على ممارسة نشاطه ، مع ملاحظة الاعتبارات الأخرى فى التغذية والسلوك ، كما سبق من قوله تعالى : « ولكل درجات مما عملوا ، وليوفيهم أعمالهم وهم لا يظلمون» (٣) وقوله : « ويؤت كل ذى فضل فضله »(٤) .

ومن رحمة الله تعالى ـ وهو الذى خلق الانسان على

---

(١) سورة طـه : ١١٥
(٢) سورة فاطر : ٣٢
(٣) سورة الأحقاف : ١٩
(٤) سورة هود : ٣

هذا النحو - أنه لم يجعله آليا يتحرك فى حياته كلها حركة اضطرارية ، قد تسوقه الى الهاوية دون اختيار ، أو قد تسوقه الى الخير دون تعثر ، بل جعله حرا مختارا ، ميزه بالعقل ، وساعده بالوحى ، الى جانب الغرائز التى هى أساس السلوك الحيوانى فى الدنيا .

ومع تحذيره من إرادة الشر وعمله ، فتح له باب العودة الى الاستقامة إن غلبته شهواته ، وآيات الترغيب فى التوبة كثيرة ، منها قوله تعالى : « قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ، إن الله يغفر الذنوب جميعا ، إنه هو الغفور الرحيم»[١]، وقوله : « وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى » [٢] ، والنبى ﷺ وضح هذه الحقيقة فقال : « كل ابن آدم خطاء ، وخير الخطائين التوابون » [٣] .

وفى ظل هذه المعانى يمكن أن يقال : إن الانسان أمير نفسه بإرادة الله تعالى ، وبما كرمه به من العقل ، وما زوده به من الوحى ، فهو الذى يستطيع أن يصنع

---

(١) سورة الزمر : ٥٣
(٢) سورة طه : ٨٢
(٣) رواه الترمذى وابن ماجه والحاكم وصححه .

حياته بنفسه فى ضوء ذلك ، إن أراد لها الخير آمن واتقى ، وإن أراد لها الشر كفر أو عصى : « إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم ، وإن أسأتم فلها » (١) « من عمل صالحا فلنفسه ، ومن أساء فعليها ، وما ربك بظلام للعبيد » (٢) .

وبهذا لا داعى للسؤال : هل الانسان مسير أو مخير ؟ فأنت مسير بقوانين الله الغالبة ، وفى إطارها أو دائرتها أنت مخير بحريتك وإرادتك .

●●●

(١) سورة الاسراء : ٧
(٢) سورة فصلت : ٤٦

رقابة الضمير

والسلوك فى ضوء ما تقدم ، من الإيمان بالله الحق ، ومراقبته فى العمل ، لا يحتاج معه المؤمن بصدق الى مصدر آخر يأمره ، ولا الى رقابة أخرى تتابعه وتؤاخذه - كما سبق ذكره - ، وكل قوة دون قوة الإيمان والمراقبة لله ، يمكن التحايل عليها عند غفلتها ، ويمكن استمالتها بأى نوع من أنواع الإغراء ، ترغيبا أو ترهيبا ، وهنا يكون الفساد والفوضى : « يا أيهاالذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين ، إن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما ، فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا ،وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا» (١) «ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقا من اموال الناس بالإثم وانتم تعملون » (٢) « ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم، إن الله لا يحب من كان خوانا أثيما • يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم إذ يبيتون ما لا يرضى من القول وكان الله بما يعملون محيطا • ها أنتم هؤلاء

---

(١) سورة النساء : ١٣٥
(٢) سورة البقرة : ١٨٨

جادلتم عنهم فى الحياة الدنيا فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة أم من يكون عليهم وكيلا » (١) .

ومن أروع الأمثلة على رقابة الله ، أو رقابة الضمير بالتعبير الحديث، حكاية العبد الراعى ، مع عبد الله بن عمر رضى الله عنهما ، فى أمانته وعدم الاستجابة للإغراءات ، ورفضه لكل باطل ينجيه من المسئولية ،فقد روى الطبرانى والبيهقى فى الشعب عن نافع عن ابن عمر رضى الله عنهما أنه خرج فى بعض نواحى المدينة ومعه أصحابه ، فوضعوا السفرة - الطعام - فمر بهم راعى غنم فسلم ، فقال له ابن عمر : هلم يا راعى فكل معنا ، فقال : إنى صائم ، فقال له ابن عمر رضى الله عنهما : أتصوم فى هذا اليوم الشديد الحر وانت فى هذه الجبال ترعى هذه الغنم ؟ فقال له : إنى والله أبادر أيامى هذه الخالية ، فقال له ابن عمر - يريد أن يختبر ورعه - هل لك أن تبيعنا شاة من غنمك فنعطيك ثمنها ونطعمك من لحمها فتفطر عليه ؟ فقال له : إنها ليست لى ، إنها غنم سيدى . فقال له ابن عمر : وما عسى سيدك فاعلا اذا فقدها وقلت : أكلها الذئب ؟ فولى الراعى عنه وهو يقول : فأين الله ؟ يرفع صوته

---

(١) سورة النساء : ١٠٧ - ١٠٩

ويكررها ويشير بإصبعه الى السماء ، فجعل ابن عمر يردد قول الراعى ذلك ، فلما قدم المدينة اشترى العبد الراعى والغنم ، وأعتقه ووهب له الأغنام » (١) .

هذا هو الضمير الحى ، والمراقبة الصحيحة لله ، التى كانت الفقرة الثانية فى برنامج لقمان لتربية ولده ، بعد نهيه عن الشرك بالله - وبينهما وصية الله بالوالدين - « يا بنى إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن فى صخرة أو فى السموات أو فى الأرض يأت بها الله إن الله لطيف خبير » (٢) .

لو توافرت هذه القيمة الأخلاقية عند المؤمنين ، ما كان هناك انحراف فى أى موقع من المواقع ، وما كانت هناك حاجة الى الرقابة البشرية ، بكل اختصاصاتها ومراتبها ، والعاملين بها ، فمن الممكن الإفلات منها ، والتحايل عليها والحوادث فى ذلك كثيرة ومشهورة، فالبيانات تصحح ، والخانات تسدد ، والتوقيعات والشهادات تزور ، والقضاء بالتالى يضلل - بفتح اللام - والله بكل شىء محيط علما .

---

(١) حياة الحيوان الكبرى للدميرى - الغنم .
(٢) سورة لقمان : ١٦

الروح الجماعيـــة

الانسان فى ظل هذه العقيدة مستقيم السلوك فى نفسه وفى الوقت نفسه يشعر بأنه عضو فى مجتمع إنسانى عام وفى مجتمع اسلامى خاص ، وفى مجتمع عائلى أخص ، وهنا لابد من مراعاة قول النبى ﷺ : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيـه ما يحب لنفســه » (١) والأخـــلاق الاجتماعية كثيرة ، والدين بينها وركز على أمهاتها، التى يجمعهــا عمــل الخــير للناس ، ومنــع الضرر عنهم ، يقول النبى ﷺ « على كل مسلم صدقة » قال : أرأيت إن لم يجد ؟ قال : « يعمل بيديه فينفع نفسه ويتصدق » قال : أرأيت إن لم يستطع ؟ قال : « يعين ذا الحاجة الملهوف » قال : أرأيت إن لم يستطع ؟ قال : « يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر » قال : أرأيت إن لم يفعل ؟ قال : « يمسك عن الشر ، فانها صدقة »(٢) ويقول : « اتق الله حيثما كنت ، وأتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق النـــاس بخلق حسن » (٣) ويقول : « أحبكم إلى أحاسنكم أخلاقا ، الموطئون أكنافا ، الذين

---

(١) رواه البخارى ومسلم .
(٢) رواه البخارى ومسلم عن أبى موسى الأشعرى .
(٣) رواه الترمذى .

يألفون ويؤلفون » (١) ويقول « أحب النـاس أنفعهم للناس » (٢) .

ومن حيـث التطبيق العملى ، يؤثر عن السلف أن الهدية كانت تأتى أحدهم فيأمـر بإرسالها الى أحـد إخوانه لأنه أحوج اليها ، فيرسلها هذا بالتالى الى غيره لهذا المعنى ، حتى تتداول بين سبعة أو أكثر ، ثم تعود الى الأول ، كل يرى أن أخاه أولى بها منه .

ولا ينسى التاريخ أبدا عزل خالد بن الوليد ، عـن قيادة الجيش فى الشام ، فلما وصل كتاب أمير المؤمنين بتولية أبى عبيدة بدله ، خشى الفتنة والفرقة والمعركة قائمة ، فاستمر كاتما لسر الرسالة ، وظل قائدا حتى انتهت المعركـة بالنصر ، ثم سلمها الى أبى عبيـدة وارتضى أن يعيش جنديا تحت قيادته وإمارته ، محافظة على وحدة الصف ، وتفانيا فى خدمة الصالح العام .

كما لا ينسى التاريخ أيضا ما حدث بعد انتهاء المعركة وتفقد الجرحى لإسعافهم ، والعطاش لريهم ، إن الكأس التى رفعها أحدهم الى فمه وهو فى آخر رمق ، يأمـر

---

(١) رواه الطبرانى .
(٢) رواه الأصبهانى .

بإرسالها الى جريح آخر سمع أنينه ، لعله يكون أحوج اليها منه ، فيرسلها الثانى الى الثالث ، فوصلته وقد فارق الحياة ، وعاد بها حاملها الى الثانى فاذا به ميت وكذلك الى الأول فاذا به ميت ، كل يؤثر أخاه على نفسه وهو فى أشد حالات الاحتياج .

تلك هى أخلاق النبل التى غرسها الاسلام فيهم ، والتى نحن فى أمس الحاجة اليها لتعود لنا القوة التى كانت لهم ، بدل أن نكتفى بترديد الشعارات ، والقناعة من الدين بأمور لا يفيد منها إلا صاحبها ، لا تكلف جهدا بدنيا ولا ماليا ، ولا تعرض حياة لخطر يحقق به المجد للاسلام ، وتكون به الأمة كما قال الله خير أمة أخرجت لناس .

●●●

إصـــلاح الإنســـان

إن إصلاح الانسان هو الركيزة الأولى لكل إصـلاح على المستوى الشعبى والحكومى ، فمن الشعب تـكون السلطة ، والفرد هو الذى يشرع ويقنن ، وهو الـذى يحكـم وينفذ ، وهو الذى يقضى ويفصل ، وهو الذى يدعو وينشر ، وعـلى رأسه تقوم كـل الإنجـازات ، والشكاوى التى يعج بها المجتمع شعبا وحكومة هى من انحراف الانسان عن القصد ، فهو - فى التمثيل والتشبيه - كالآلة التى تفرز القطن وتغزله وتنسجه ، تلقى فيها الخامة وتؤدى واجبها فيها ، فإن كانت صالحة أنتجت صالحـا ، وإلا فـلا ، وقل مثل ذلك فى آلات الطحن والحياكة وكل الآلات ، إن كانت أجزاؤها كاملة ومادتها قوية ، أى صالحة كما وكيفا ، أدت واجبها بـكفاءة ، وإن نقص بعض أجزائها أو كانت مادتها مغشوشة ، فسدت وعقمت عن الانتاج المطلوب .

فلا بد من بناء الانسان بناء جيدا فى ظاهره وباطنه، وهدى الله غطى هذه الناحية ، بما لا يستطيع أى منهج

أن يغطيها ، صنع الله الذى أتقن كل شىء ، والـذى يتولى بناء الانسان ويسهم فى ذلك بنصيب أكبر هـو البيت والمدرسة ، وكل مؤسسات التربية ، ومنابـع الثقافة ، وتفصيل ذلك فى كتابنا الذى أشرنا اليه من قبـل .

●●●

إصــــلاح الســــلطة

الإصــلاح فى القطــاع الحـكومى موضوع واســع ، والتفصيل فيه طويل استوفته كتب خاصة ، الى جانب الكتب العامة ، مثل : الأحكام السلطانية للماوردى ، ومثله لأبى يعلى الفراء الحنبلى ، والسياسة الشرعيـة لابن تيمية ، ولكن ما لا يدرك كله لا يترك كله ، فأقول باختصار : إن الدولة فيها - بالتقسيم الحديث - ثلاث سلطات هى : السلطة التشريعية ، والسلطة التنفيدية، والسلطة القضائية ، وزيدت عليها أخيرا فى بعض الدول سلطة الصحافة ، وكذلك وسائل الإعلام الأخرى .

وعلى رأس هؤلاء جميعا ، حاكم عام يعرف باسـم الملك ، أو السلطان ، أو الامبراطور ، أو الخليفة ، أو الأمير ، أو الإمام ، أو الرئيس ...

١ - الحاكـم العــام :

هذا الحاكم العام قد يكون مختارا من الشعب بطريقة أو بأخرى ، وقد يكون معينا ممن سبقه ، أو من جهـة أخرى ، وقد يكون متسلطا غالبا قاهرا ، والمواصفات

التى ذكرها العلماء فيه هى كما قال الماوردى (١) العدالة ، والعلم ، وسلامة الحواس ، وسلامة الأعضاء، والرأى ، والشجاعة ، والنجدة ، وواجباته ، كما يقول أيضا ، هى :

١ - حفظ الدين - الدستور - من التبديل فيه ، والحث على العمل به .

٢ - حراسة البيضة والذب عن الأمة من عدو فى الدين أو باغ على نفس أو مال .

٣ - عمارة البلدان باعتماد مصالحها وتهذيب سبلها ومسالكها .

٤ - تقدير ما يتولاه من الأموال بسنة الدين من غير تحريف فى أخذها وإعطائها .

٥ - معاناة المظالم والأحكام ، بالتسوية بين أهلها ، واعتماد النصفة فى فصلها .

٦ - إقامة الحدود على مستحقيها من غير تجاوز فيها ولا تقصير عنها .

---

(١) الأحكام السلطانية ص : ٦

٧ ـ اختيار خلفاء عنه فى الأمور ، يكونون من أهل الكفاية فيها والأمانة عليها .

ومسئوليته أخطر المسئوليات ، كما يؤخذ ـ مع الواقع ـ من ترتيبها فى الحديث : « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته ، الامام راع ومسئول عن رعيته ، والرجل راع فى أهله ومسئول عن رعيته والمرأة راعية فى بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها ، والخادم راع فى مال سيده ومسئول عن رعيته » (١) وفى هذا يقول ﷺ أيضا : « السلطان ظل الله فى الأرض ، يأوى اليه كل مظلوم ، فإن عدل كان له الأجر ، وعلى الرعية الشكر ، وإن جار أو حاف أو ظلم كان عليه الوزر ، وعلى الرعية الصبر » (٢) .

رحم الله أمير المؤمنين ، عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، الذى ضرب المثل الأعلى فى الإحساس بمسئولية الحاكم ، اقتداء بالنبى ﷺ الذى قال فيه : « فبما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك ، فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله، إن الله يحب المتوكلين»(٣)

---

(١) رواه البخارى ومسلم .
(٢) رواه ابن ماجه والبزار والبيهقى .
(٣) سورة آل عمران : ١٥٩

وقال : « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم »[١] - حيث كان يتجول فى المدينة ليلا ليتعرف أحوال الرعية ، وحكايته مشهورة مع المرأة الفقيرة ، التى حمل اليها الطعام ، وهياه لها حتى رضيت عنه ، بعد آن كانت ساخطة عليه ، وهو القائل : لو علمت أن راعى غنم بحضرموت له حق عندى لحملته اليه حتى يأخذه ، والقائل : لو عثرت دابة بشط العراق لوجدتنى مسئولا عنها لم لم آمهد لها الطريق ، والذى وجد بعيرا من إبل الصدقة به علة فتولى مداواتها بنفسه ، ولما قيل له : كان عبدك يكفيك هذا قال : إذا جئت يوم القيامة هل يسأل الله عنه عمر ، أم عبد عمر ؟ إنه هو الذى استوقفته عجوز فى الطريق ، فاستمع اليها ، وهى تنصحه بالتواضع والرحمة والعدل ، والإحساس بالمسئولية أمام الله ، ولما سئل عن وقوفه معها قال : إنها خولة بنت ثعلبة ، التى اشتكت زوجها الى الله عند رسول الله ﷺ فاستجاب الله لها - كما جاء فى أول سورة المجادلة عن حكم الظهار - وقال عمر : أيسمع الله كلامها من فوق سبع سموات ، ولا يسمع كلامها عمر ؟ .

---

(١) سورة التوبة : ١٢٨

إنها مجموعة قيم فى عمر وغيره ، من حكام السلف الصالح ، نابعة من إحساسهم بخطورة مهمتهم ، وعظم مسئوليتهم ، إنهم بشر ليسوا آلهة لا يسألون عما يفعلون كما أنهم ليسوا ملائكة معصومين ، فكل ابن آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون، وإيمانهم بالرجوع الى الله ، وحسابهم على كل صغيرة وكبيرة فى أداء مهمتهم ، يعطيهم دفعة قوية للسهر على مصالح الأمة وحسن اختيار من يعملون معه ، لإبراء الذمة أولا ، ولحسن الأحدوثة فى التاريخ ثانيا ، فالذكر للانسان عمر ثان كما يقول الحكماء ، وكما طلب ذلك من رب العزة سبحانه ، سيدنا ابراهيم عليه السلام بقوله : « واجعل لى لسان صدق فى الآخرين » (١) .

●●●

---

(١) سورة الشعراء : ٨٤

الحاشـــية

والحاكم الذى يريد الله له الخـير يوفقـه فى اختيار حكومته ، فهى عينه التى يرى بها ، وأذنه التى يسمع بها ، إنها حاشية وبطانة له ، الى جانب ما يتخذه من حاشـية وبطـانة بأسـماء مختلفـة ، كمستشارين ومساعدين .

وقـد جاء فى الحـديث : « ما بعث الله من نبى ولا استخلف من خليفة إلا كانت له بطانتان ، بطانة تأمره بالخير وتحضه عليه ، وبطانة تأمره بالشر وتحضه عليه والمعصوم من عصم الله » (١) وفى حديث آخر : « إذا أراد الله بالأمير خيرا جعل له وزير صدق ، إن نسى ذكره وإن ذكر أعانه ، وإذا أراد به غير ذلك جعل له وزير سوء ، إن نسى لم يذكره ، وإن ذكر لم يعنه » (٢) .

●●●

(١) رواه البخارى .
(٢) رواه أبو داود بإسنا جيد .

واجب الرعيــة

وعلى الرعية ـ مع الطاعة فى المعروف ـ تقديم النصح له حتى لو لم يطلبه منها ، وذلك عن طريق القنوات الشرعية ـ بالتعبير الحديث ـ والمهم أن يكون بالحكمة التى ذكرت فى غير هذا الكتاب ، جاء فى الأثر أن عمر ، رضى الله عنه ، كان يخطب فقال له رجـل من عامـة الناس : اتق الله ، فأنكر عليه رجل ذلك ، فقال له عمر: دعه فليقلها ، لا خير فيكم اذا لم تقولوها ، ولا خـير فينا اذا لم نقبلها ، وقـد قال الخليفة الـراشد : إن رأيتمونى على حق فأعينونى ، وإن رأيتمونى عـلى باطل فقومونى ، وحادثة عمر فى النهى عن المغالاة فى المهور ، واعتراض امرأة عليه معروفة ، فقد كان وقافا عند كتاب الله ، والرجوع الى الحق فضيلة .

وموقف الشعب من ولى الأمر اذا فسق بسلوكه ، أو جار أو ظلم ، مذكور بالتفصيل فى الجـزء الأول من كتاب : « بيان للناس من الأزهر الشريف » وقد سبقت الإشارة اليه ، والشعب اذا لم يرض عن السلطة الحاكمة يجب أن يراعى الدساتير الموضوعة ، حتى لا يـكون

الخروج عليها مفضيا الى أضرار غير محتملة ، ونواب الشعب يقع على عاتقهم جزء كبير من المسئولية في هذا المجال ، ومن هنا تتضح خطورة اختيارهم وممارستهم لمهمتهم .

٢ ـ السلطة التشريعية :

ليكن معلوما أن الله سبحانه وتعالى هو خالقنا ، وهو المشرع الحقيقى لنا بالوحى ، ليخرج الناس من الظلمات إلى النور ، ولئلا تكون لهم عليه حجة ، لكن لابد فى الأرض من خليفة يستقبل هذا التشريع الموحى به ، ويبلغه ويحكم به ، وحيث إن الخليفة الذى تلقى الوحى أجله محدود ، لا بد أن يتولى الأمر بعده ورثة هذا التشريع . قال تعالى : « يا داود إنا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله » (١) .

والرسول محمد ﷺ فى حياته ، كان متلقيا للتشريع من الله ، ومشرعا فى الوقت نفسه بتفويض من الله سبحانه ، حيث قال : « وما آتاكم الرسول فخذوه وما

---

(١) سورة ص : ٢٦

نهاكم عنه فانتهوا » (١) وكان منفذا وكان قاضيا . ثم دخل النظام الى الحكم الاسلامى ووزعت الاختصاصات وتطورت الأمور ، حتى وصلت فى عصرنا الحديث الى ما نراه اليوم .



---

(١) سورة الحشر : ٧

الاجتهـــــاد

والى جانب النصوص التشريعية الواردة فى القرآن والسنة ، بخصوص الدستور والقوانين ، هناك أمران : أولهما احتياج بعض النصوص الى توضيح ، يقوم به من لهم أهلية الاجتهاد بالمواصفات المعروفة ، وثانيهما عدم وجود نص لشىء معين ، وذلك فى قطاعين : قطـاع دينى يحتاج فيه الى القياس ، وقطاع دنيوى يستقـل فيه الناس بتقرير ما يناسبهم فى نطاق المصلحة ، التى لا تصادم أصلا مقررا من أصول الدين ، وإن كان الفصل صعبا بين أمور الدنيا والدين . قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسـول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخـر ذلك خير وأحسـن تأويلا » (١) وقال : « ولو ردوه الى الرسول والى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم»(٢) وقال : « وأمرهم شورى بينهم » (٣) وقال ﷺ : « أنتم أعلم بشئون دنياكم » (٤) .

---

(١) سورة النساء : ٥٩
(٢) سرة النساء : ٨٣
(٣) سورة الشورى : ٣٨
(٤) رواه مسـلم .

والتشريع فى ظل النظم الحديثة ، تقوم به فى بعض البلاد الاسلامية مجالس ، كمظهر من مظاهر الحكم الديمقراطى ، والأصل فى هذه المجالس - فى بلاد المسلمين - ألا تنظر فيما جاء به النص واضحا ، وعلم من الدين بالضرورة ، وألا تشرع أمرا يخالف ذلك ، وأن يكون جل بحثها فى الأمور الدنيوية التى تختلف باختلاف ظروف الزمان والمكان ، هذا هو الأصل ، وإن كان بعض المجالس تحاول أن تشرع فى الأمور الدينية ، لأن الدستور يخول لها ذلك ، وبخاصة اذا لم ينص فيه على أن دين الدولة الرسمى هو الاسلام وعلى أن الشريعة الاسلامية هى المصدر الأساسى للتشريع .

وإعمالا للنص المذكور فى بعض الدساتير ، يجب أن تغير كل القوانين المخالفة للشريعة ، وأن يجمع ممثلو الشعب على ذلك ، وفى مصر بالذات ، قام كثير من النواب فى دورات مختلفة بالمطالبة بتنقية القوانين القائمة مما يخالف الشريعة ، إن تعذر تغييرها تغييرا جذريا بصياغة جديدة فنية فقهية ، تحافظ على التراث، وتبسط بأسلوب العصر ، وتنتظم بمواصفاته ، وذلك إعمالا للدستور ، وفى إحدى الدورات نودى بذلك ، وللتاريخ أذكر نص الكلمة التى أعددتها بهذه المناسبة، وألقيت ملخصها بمجلس الشعب ، فى جلسة يوم السبت ١٤ من شعبان سنة ١٤٠٥ هـ ، الموافق ٤ من مايو سنة ١٩٨٥ م ، وهى :

الكلمة التى ألقى ملخصها فى مجلس الشعب
يوم السبت ٤ من مايو ١٩٨٥
بخصوص تطبيق الشريعـة الإسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله ، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله ، أما بعد : فأحمد الله الذى أتاح لى الفرصة لأتحدث من أوسع قناة شرعية رسمية ، فى موضوع هو أهم الموضوعات بالنسبة إلى العالم عامة، وبالنسبة لمصر خاصة ، ذلـكم هو موضـوع استكمال تطبيق الشريعـة الاسـلامية ، وقـد اخـترت تعبير « استكمال » إنصافا للحقيقة ، حيث لا ينبغى فى الحكم على الشىء التركيز على السلبيات عند القدح ، ولا على الإيجابيات عند المدح ، فالشريعة بمعناها الواسع تشمل العقائد والعبادات ، والأخلاق والمعاملات ، وجميـع النظـم الأسرية والدستورية ، والقضـائية والـدولية وغيرها .

ومصر ـ بحمد الله ـ تمارس جزءا كبيرا من الشريعة على وجه استحقت به أن تكون زعيمة العالم الأسلامى، فشعبها أحسن الشعوب فهما للدين ، وسلامة فى العقيدة، واحتراما للعبادة ، وتقديرا للأخـلاق ، وتجاوبا مـع

التطور المتزن ، فى الحضارة والعمران ، والمطلوب هو استكمال التطبيق فى أمور ، وإن كان حجمها صغيرا ، فأن أثرها كبير والتطلع الى الكمال سمة الأخيار ، والمؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، والمؤمن لا يشبع من خير حتى يكون منتهاه الجنة كما جاءت بذلك الأحاديث النبوية (١) .

إن كلمتى فى نقطتين : أولاهما فى المطالبة باستكمال التطبيق ، والثانية فى أهمية التطبيق ، أما الأولى فالحديث عنها من منطلقات أربعة : منطلق دينى ، ومنطلق تاريخى ، ومنطلق شعبى ، ومنطلق دستورى، وبيان ذلك باختصار .

١ ـ أما المنطلق الدينى ، فنحن كأمة مسلمة نعيش فى بلد دينه الرسمى هو الاسلام ، يأمرنا الدين بالدعوة الى الخير ، والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، ولا شك أن كمال التطبيق للشريعة خير ومعروف ، والتقصير فيه منكر ، قال تعالى : « ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون » (٢) .

---

(١) سبق تخريجها .
(٢) سورة آل عمران : ١٠٤

وعندما اصدر الله سبحانه قراره الحكيم بخيرية هذه الأمة ، كان من أولى الحيثيات ، الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، فقال : « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » (١) وجعل من الصفات المميزة لها ، ولاية بعضهم لبعض ، فى التناصح ، فقال : « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر » (٢) وقال : « والعصر إن الإنسان لفى خسر ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » (٣)

ومن صور هذه الولاية التشاور فيما لم يرد فيه نص قاطع ، قال تعالى فى صفات المؤمنين : « وأمرهم شورى بينهم »(٤). والتشاور كما يكون بين الأفراد بعضهم مع بعض ، يكون بين القاعدة والقمة ، بين الراعى والرعية قال تعالى لنبيه محمد ﷺ : « وشاورهم فى الأمر » (٥) وكان عليه الصلاة والسلام أكثر الناس مشاورة لأصحابه والشواهد على ذلك كثيرة ، فى الحرب والسلم على

---

(١) سورة آل عمران : ١١٠
(٢) سورة التوبة : ٧١
(٣) سورة العصر .
(٤) سورة الشورى : ٣٨
(٥) سورة آل عمران : ١٥٩

السواء ، وعلى المستوى الخاص والعام ، وقال ﷺ فى الحديث الصحيح : « الدين النصيحة ، لله ولرسوله وكتابه ولأئمة المسلمين وعامتهم » (١) على بعض ما فسرت به النصيحة فى هذا الحديث .

ولم يكتف الاسلام بمدح التناصح ، بل صرح بالأمر به فى نصوص كثيرة ، وقال النبى ﷺ : « من رأى منكم منكرا فليغيره بيده ، فان لم يستطع فبلسانه ، فان لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان » (٢) ولم يكتف الإسلام أيضا بالأمر الصريح بالتناصح ، بل أكده بالنهى عن التقصير فيه ، حتى لا نكون ممن لعنهم الله بقوله : « كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون »(٣) ، وفى الحديث « إذا رأيت أمتى تهاب أن تقول للظالم يا ظالم فقد تودع منهم » (٤) وعن أبى بكر الصديق رضى الله عنه قال : « يا أيها الناس إنكم تقرءون هذه الآية : « يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم » وإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الناس اذا رأوا الظالم فلم

---

(١) رواه مسلم .
(٢) رواه الحاكم .
(٣) سورة المائدة : ٧٩
(٤) رواه الحاكم وصححه .

يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده » (١) . وقال أبو على الدقاق ، كما فى رسالة القشيرى ، الساكت عن الحق شيطان أخرس .

٢ - أما المنطلق التاريخى فبيانه ، أن مصر كانت الى ما قبل احتلال الغرب لها ، تحكم بالشريعة الاسلامية ، وإن لم يكن دستور مدون على النظام الحديث ، فدستورها القرآن والسنة ، ولم تكن هناك مجالس تشريعية لعدم الحاجة اليها ، حيث سد فراغها الجامع الأزهر الشريف ، بما اضطلع به من أعباء عشرة قرون ، من تعليم لهذا الدستور وشرح لقوانينه ، بل ورقابة على تنفيذه ، الى أن حكمت مصر بالقانون الوضعى الغريب ، الذى عارضه الغيورون على دينهم ووطنهم ، وقامت محاولة لتقنين الشريعة على نظام حديث بمعرفة « قدرى باشا » فى كتابه : « مرشد الحيران » الذى حال دون الأخذ به عقبات وعقبات .

وفى العشرينات من هذا القرن ، علت صيحة العودة الى التشريع الاسلامى ، بجعل القرآن دستورا للأمة ، وأخيرا قامت صحوة بوجوب تطبيق ما تضمنه الدستور الوضعى فى مادته الثانية ، والاقتراح المقدم الى المجلس

---

(١) رواه أبو داود والترمذى وقالوا : حديث حسن صحيح .

اليوم ، هو حلقة من حلقات هذه السلسلة التاريخية ، للمناداة بتطبيق الشريعة الاسلامية تطبيقا كاملا .

٣ ـ أما المنطق الشعبى ، فيتلخص فى أن المعركة الانتخابية الأخيرة ، شهدت نشاطا كبيرا فى الدعوة ، وكثرت الشعارات المكتوبة وغير المكتوبة ، بأن الشريعة هى المصدر الرئيسى للتشريع ، وأخذت العهود بين الشعب والمرشحين لتحقيق هذه الشعارات ، وما زلنا ـ بعد اختيار الشعب لنا ـ نسأل عن الوعد الذى قطعناه على أنفسنا ، فوفاء بالوعد نتقدم بطلب استكمال التطبيق للشريعة الاسلامية ، لنكون عند حسن الظن .

٤ ـ أما المنطلق الدستورى فبيانه ، أن أول يوم جئنا فيه هذه القاعة أقسمنا بالله العظيم ـ وإنه لقسم لو تعلمون عظيم ـ على احترام الدستور والقانون ، ومن البر بهذا القسم أن نعمل على تطبيق الدستور والقانون حتى لا يظل مجرد شعار كغيره من الشعارات ، وعلى الأخص ما جاء فى مادته الثانية المتعلقة بالتشريع ، ومادته الثانية عشرة المتعلقة بالسلوك ، حيث نصت على أن المجتمع والدولة مطالبان بالالتزام بمبادىء الأخلاق ، والتمكين للتقاليد المصرية الأصلية .

وإذا تجاوزنا الحديث عن واجب المجتمع ، الذى لا نعفيه من المسئولية فى هذا المقام ، وهى مسئولية موزعة كما نص الحديث الشريف : «كلكم راع وكل راع مسئول عن رعيته ...» (١) فنحن كنواب عن المجتمع ، نرى أن بعض الأجهزة لا تعطى الرعاية الكافية للتربية الدينية والخلقية والوطنية ، كنص الدستور ، بل إن بعضها قد يسير فى خط مضاد ، مما أدى الى كثرة الشكاوى من استيلائها على مشاعر الكبار والصغار على السواء ، وتركت بصمتها على سلوكهم جميعا ، حيث اقتحمت عليهم أبوابهم ، ولاحقتهم فى مخادعهم طوعا أو كرها ، ومن هنا نطالب بتطبيق هاتين المادتين بوجه خاص .

تلك هى مبررات المناداة باستكمال التطبيق للشريعة الاسلامية . واسمحوا لى فى دقائق أن أتحدث عن أهمية التطبيق نفسه - مع يقينى بأن جميع المواطنين أو أكثرهم يحرص على هذا التطبيق ، ويعلم كل العلم أن السعادة كل السعادة فى التمسك بالدين .

إن كل عمل يحتاج فى تطبيقه الى أمرين : أولهما وجود المقتضى ، والثانى عدم المانع ، والمقتضى للتطبيق

---

(١) رواه البخارى ومسلم .

ليس واحدا ، بل مقتضيات عدة ، نكتفي منها بمقتض ديني ، ومقتض تاريخي ، ومقتض وطني .

١ ـ فالمقتضى الديني هو أمر الله باتباع أمره وطاعته، والتحذير من مخالفته ومعصيته ، والنصوص في ذلك أشهر من أن تذكر ، وأكثر من أن تحصر ، نكتفي منها بما يلي :

في الأمر قال الله تعالى : « اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم » (١) وقال : « وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ، ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون » (٢) وقال : « ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون . إنهم لن يغنوا عنك من الله شيئا ، وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض والله ولي المتقين » (٣) وقال : « وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم » (٤) ، وقال : « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم » (٥) وقال : « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم . فان تنازعتم في شيء فردوه الى الله

(١) سورة الأعراف : ٣
(٢) سورة الأنعام : ١٥٥
(٣) سورة الجاثية : ١٨ ، ١٩
(٤) سورة المائدة : ٤٩
(٥) سورة محمد : ٣٢

والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، ذلك خير وأحسن تأويلا » (١) ٠

وفى التحذير قال سبحانه : « فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم » (٢) ونحن لا نحب أن نكون ممن شملهم عموم الآية الكريمة أو شبيهين بمن نزلت فيهم خاصة ، وهى قوله تعالى : « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون »(٣) وكذلك قوله : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما » (٤) وقوله : « ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيدا ٠ وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدودا » (٥) ٠

٢ - والمقتضى التاريخى ، أن بلدنا منذ عهد الفراعنة نرى على حضارتها مسحة دينية ، بنت من أجلها

---

(١) سورة النساء : ٥٩
(٢) سورة النور : ٦٣
(٣) سورة المائدة : ٤٤
(٤) سورة النساء : ٦٥
(٥) سورة النساء : ٦٠ ، ٦١

الأهـرام ، وحنطـت الأجسام ، ودفنت معهـا بعض الأطعمة ، ليقوم الميت بعد الموت ويتمتع بعد المساءلة، والحساب والميزان ... ولا عجب فى ذلك ، فقد ولـد وأرسل فيها نبى من أقدم الأنبياء ، هو إدريس عليـه السلام ، ونشأ يوسف عليه السلام بمصر ، وحكم ودعا الى التوحيد : « أأرباب متفرقون خير أم الله الواحـد القهار » (١) وولد فيها ونشأ وأرسـل موسى وهـارون عليهما السلام ، وشرفها أيضا سيدنا عيسى عليه السلام ووقف أتباعه وقفة الأبطال ، ضد وثنية الـرومان ، واستشهد منهم كثيرون فى الثمانينات من القرن الثالث الميلادى ، ثم فتحوا صدورهم للعرب الفاتحـين لمـا عرفوا عنهم من رحمة وعدل ، وأطل على مصر نـور الاسلام منذ أربعة عشر قرنا ، وظلت بفضل الجامـع الأزهر الشريف ، حفيظة على الدين واللغة العربية ، دراسة ونشرا وممارسة ، قوية عزيزة ، ردت التتار على أعقابهم خاسرين فى عين جالوت ، وخلصت القدس من أيدى الصليبيين فى حطين ، ووقفت ضد الاستعمار صفا واحدا صامدة مقاومة ، حتى رحل عنها ، بفضل قوة الدين الذى غرس فى النفوس تعشق الحـرية وحـب الاستقلال ورفض الذل والهوان ، وكـان عبورها فى

---

(١) سورة يوسف : ٣٩

أكتوبر المجيد تحت راية « الله أكبر » وهم صائمون .

إن أمة بهذا التاريخ الدينى الطويل ، يعز عليها أن يطغى عليها ما لا يتلاءم مع شخصيتها المتميزة ، ولا مع مركزها الأدبى بين دول العالم الاسلامى ، ومن هنا كان الدين والتدين ضرورة ، لا غنى عنها .

٣ - أما المقتضى الوطنى ، فيبدو واضحا فى مثل واحد من أمثلة كثيرة ، ذلك أن رخاء المجتمع الذى ننادى به اليوم ، ونضع له الخطة تلو الخطة ، أساسه تنمية موارد الثروة ، وترشيد الاستهلاك ، ولا يكون ذلك إلا بالانضباط وعدم التسيب ، وهاتان الكلمتان ترجمة عصرية لكلمتى الطاعة وعدم المعصية ، وهما جناحا التقوى ، التى هى امتثال الأوامر واجتناب النواهى، وذلك سلوك لا يقبل عند الله ولا يؤدى الغرض منه إلا اذا كان نابعا من إيمان يرجى به الثواب على الطاعة، ويخشى العقاب على المعصية ، وبتعاون الايمان مع التقوى يكون الخير كله ، وليست هذه النتيجة قرارا أو وعدا من شرق أو غرب ، بل من رب الشرق والغرب جميعا ، وهو الله سبحانه حيث قال : « ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض » (١) .

---

(١) سورة الأعراف : ٩٦

والبركات بالجمع والتنكير شاملة عامة ، تأكدت بالنص على أنها من السماء والأرض ، أى من كل مكان وفى أى مجال . وقال : « من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ، ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون »(١) وقال : « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم آمنا يعبدوننى لا يشركون بى شيئا » (٢) وقال : « وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا لنفتنهم فيه » (٣) وقال : « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين، يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم » (٤) والنبى ﷺ قال : « إنى تركت فيكم ما إن تمسكتم به فلن تضلوا بعدى أبدا ، كتاب الله وسنتى » (٥) .

إن الأديان بوجه عام رسالات سماوية ، تستهدف

---

(١) سورة النحل : ٩٧
(٢) سورة النور : ٥٥
(٣) سورة الجن : ١٦
(٤) سورة المائدة : ١٥ ، ١٦
(٥) رواه الحاكم وصححه .

الاصلاح الشامل ، وقد قال الله لآدم حين أهبطه الى الأرض ليباشر مهمته : « فإما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى . ومن أعرض عن ذكرى فأن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى . قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا . قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى . وكذلك نجزى من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ولعذاب الآخرة أشد وأبقى » (١) .

والاسلام بوجه خاص ، رسالة كاملة وافية بكل مقومات السعادة . قال تعالى : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا » (٢) وقال : « إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم » (٣) وقال : « ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شىء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين (٤) .

واذا عرفنا أن الاسلام يقدس العمل ، ويرفع منزلة العاملين فى أى قطاع من القطاعات ، ويوزع المسئولية على كل المجتمع ، عرفنا كيف يكون أثر تطبيق الشريعة فى الرخاء الشامل ، والنصوص فى ذلك كثيرة .

---

(١) سورة طه : ١٢٣ — ١٢٧ .
(٢) سورة المائدة : ٣
(٣) سورة الاسراء : ٩
(٤) سورة النحل : ٨٩

تلك هى باختصار شديد المقتضيات لتطبيق الشريعة كاملا ، ولا أزعم - وهذا ما يجب أن يفهمه كل مسلم - أن كل المجتمعات الدينية - حتى فى عصورها الزاهية - بلغت ذروة الكمال فى التطبيق أو خلت من السلبيات ، فالناس بشر ، أبوهم آدم الذى أكل من الشجرة لحكمة أرادها الله ، وكل بنى آدم خطاء كما جاء فى الحديث ، ولكن المجتمعات تتفاوت فى هذا التطبيق ، فان لم تصل الى الكمال ، فحسبها أنها جاهدت لتصل ، وكما جاء فى الحديث : « الدين يسر ، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه ، فسددوا وقاربوا ... » (١) .

أما عدم المانع فيكفى أن أضع أمامكم هذه الحقائق:

١ - نحن نعتز بأننا نملك إصدار القرار بأنفسنا ، وبكامل حريتنا ، لا نتملق فيه أحدا ، ولا نرهب أى سلطان ، وهذا أمر يجب أن يفاخر به كل مؤمن حركريم ويقتضى ذلك أن نجعله واقعا حيا ، ولا يبقى مجرد شعار نزهى به ونفاخر ، قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون . كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون » (٢) .

---

(١) رواه البخارى .
(٢) سورة الصف : ٢ ، ٣

٢ ـ عندما قرر الله سبحانه عدم تمكين المشركين من دخول المسجد الحرام ، مع أنهم كانوا ذوى نشاط اقتصادى يفيد منه أهل مكة ، كما يفيد الناس من العملة الصعبة اليوم عن طريق السياحة والاتفاقات ـ قال الله مع ذلك : « وإن خفتم عيلة ـ أى فقرا ـ فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء إن الله عليم حكيم » (١) فهو عليم بما نحتاجه ، حكيم فى وضع القرار المناسب ، ذلك أن القيم لا تشترى بالمال ، والدين يرخص فى سبيله كل غال .

٣ ـ نحن نملك رصيدا كبيرا من الحكمة ، والخبرة والدقة ، وحسن التخطيط ، وبعد النظر ، ما نتفادى به ردود فعل سيئة ، أو اخطاء تحدث عند التطبيق ، واسلوب الإسلام ، معروف فى كل تشريع من هذا القبيل .

٤ ـ الاسلام ليس شبحا مخيفا ، ولا سيفا مصلتاً على رقاب الناس ، سواء منهم من آمن ومن لم يؤمن ، فهو مع المؤمنين يقول : « لا يكلف الله نفسا إلا وسعها » (٢) وفى الحديث الشريف : « ادرءوا الحدود بالشبهات » (٣)

---

(١) سورة التوبة : ٢٨
(٢) سورة البقرة : ٢٨٥
(٣) رواه ابن عدى فى الكامل .

ومع غيرهم دين عدل وإنصاف وتسامح فى أعلى الدرجات ، فقد نعم فى ظله كل صاحب فكر وعقيدة ، فى حدود الحفاظ على أمن المجتمع وسلامته ، قال تعالى : « فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر » (١) وقال : « فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم » (٢) وقال : « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين » (٣) وأوجب على المؤمنين أن يحترموا كل الرسل ويؤمنوا بهم جميعا « لا نفرق بين أحد من رسله » (٤) ، وفى الحديث الصحيح : « الأنبياء إخوة من علات ، أمهاتهم شتى ودينهم واحد ، وأنا اولى الناس بعيسى بن مريم لأنه ليس بينى وبينه نبى » (٥) ، وحافظ على وحدة المجتمع لدرجة أنه ﷺ قال : « من آذى ذميا فأنا خصمه يوم القيامة » (٦) .

والأمثلة كثيرة فى التاريخ ، تؤكد الحرص على أمن

---

(١) سورة الكهف : ٢٩
(٢) سورة التوبة : ٧
(٣) سورة الممتحنة : ٨
(٤) سورة البقرة : ٢٨٥
(٥) رواه مسلم .
(٦) رواه أبو داود بأوسع من ذلك .

المجتمع مهما تعددت أديانه ، وتاريخ مصر بالذات ، يشهد تعاونا رائعا فى هذا المجال ، ففى ثورة ١٩١٩ وقفت الأمة كلها أمام الاستعمار تطالب بالاستقلال، وفى عبور أكتوبر لم يفرق المدفع بين مواطن ومواطن ، فالـكل يدافعون عن النيل الـذى شربوا من مائـه جميعـا •

٥ ـ فقه الشريعة أصبح ميسرا للفهم والتطبيق ، بعد أن قامت اللجان المختصة من فقهاء الشريعة والقانون، بوضع مشروعـات القوانـين على النظـام الحديث ، وأقرها الأزهر الشريف ، وأودعت أمانة مجلس الشعب منذ مدة طويلة •

وبعد : فاسمحوا لى أن أعرض أمامـكم قضيتين : الأولى أناشد فيها القضاة والمستشارين أن ينظـروا فيها بعقولهم وقلوبهم ، وأن يحكموا فيهـا بعلمهـم وضمائرهم معا : رجل استقر في داره زمنا طويلا ، ثم جاء غاصب جبار احتل داره وطرده منها ، أو زاحمه فيها ، ومعه وحش كاسر يرهب به أصحاب الدار ، وكم شكا الرجل فلم تسمع شكواه ، لأن الخصم فى قضيته هو الحكم ، وشاء الله أن يرحل هذا الطـاغية وترك وحشه كاثـر من آثاره ؛ أليس من العـدل أن ننصف صاحب الدار فنعيده اليها ، أو نمكنه من التمتع بها ؟

بدل أن نبقى على الوحش الذى رحل سيده ، ونحاول استئناسه بتقليم أظافره ، أو خلع أنيابه ، أو نحاول حشد المبررات والحجج لنثبت شرعية احتلاله ، ونعمل على استقراره بدل إزعاجه ، إن السبع سبع ولو كلت مخالبه ، وإن استقرار صاحب الدار أولى من استقرار الظالم الجبار .

والقضية الثانية أضعها أمام الكتاب ، والفلاسفة والمصلحين ، لبسنا ثوبا منسوجا من مادة مناسبة استراحت لها أجسامنا وهدأت أعصابنا ، ثم أرغمنا على خلعه لنلبس ثوبا من ألياف صناعية بموادها الكيماوية التى أثارت الحساسية فى أجسامنا ، والقلق فى أعصابنا ، وهو فى الوقت نفسه لا يقى حراً ولا يدفع بردا ، بل إنه لرقته وشفافيته كشف باسم الحرية عما كان ينبغى أن يستر ، وأغرى باسم المدنية على ارتكاب السوء والمنكر ، والآن وقد قامت أعظم بيوت الخبرة فى الأزياء ، باعادة ثوبنا الأصلى على طراز جمع بين أصالة الجوهر وحسن المظهر ، أفليس من الخير أن نعود اليه ، بدل أن نحاول تطويع أجسامنا وأعصابنا لتتلاءم مع الجديد الغريب ، أو نعالج كيماوياته بما يمنع الحساسية ، أو نرقعه بما يسد خروقه ، إن الذى خلق أجسامنا بقدرته ، ألبسنا الثوب المناسب بحكمته ،

فأين صنع البشر من صنع رب البشر ، « صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة » (١) « أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون » (٢) ٠

فيا أيها الذين آمنـوا استجيبوا لله وللرسـول إذا دعاكم لمـا يحييكم ٠ واذا كان فيمـا يحيينا انفتـاح وتوازن ، وحرية وتمدن ، فليكن فى إطار الدستور الذى أقررتموه فى مادته الثانية ، فى إطار الدين ، كما يقول رب العزة : « فان تنازعتـم فى شىء فـردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، ذلـك خير وأحسن تأويلا » (٣) ، فكم من أخطاء ارتـكبت باسم هذه الشعارات ، وذلك لخطأ فى الفهم ، أو خطأ فى التطبيق ٠

أستطيع الآن أن أقول بكل ارتياح : اللهم قد بلغنا فاشهد ، ويا أيها الشعب قد وعدنا فأوفينا بالوعـد ، ويا أيها التاريخ سجل أن مصر ما زالت على العهـد بها ، مؤمنة بربها ، متمسكة بدينها ، لم تمت ضمائرها مهما اشتد الضغط ، ولم يتبلد حسها حتى لو طال العهد ، فالخير موجود فيها الى يوم القيامة ٠

---

(١) سورة البقرة : ١٣٨

(٢) سورة المائدة : ٥٠

(٣) سورة النساء : ٥٩

وأخيرا ، اذا كان لى من نصيحة فهى الى الزمــلاء ، ممثلى الشعب الذين يقننون للشعب ، وهى أن يضعوا أمام أعينهم قول النبى ﷺ : « من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها الى يوم القيامة ، ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها الى يوم القيامة » (١) وأن يكونوا خير قدوة للشعب فى صدق الالتزام ، حتى تدوم الثقة بهم ، وحتى يبــارك الله جهودهم ، إن التاريخ لا يرحم ، والله على كل شىء شـــهيد .

وإذا كان لى من دعــاء ، فهو دعــاء من الأعماق لمصرنا العزيزة ، بدوام الرقى والازدهـــار ، ولولاة أمورنا بكمال التوفيق والسداد ، فى ظل الشريعة الغراء والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

السبت : ١٤ من شعبان ١٤٠٥ هـ (٤ من مايو ١٩٨٥م)

عطيــة صقــر

عضو مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الشريف

وعضو مجلس الشعب

---

(١) رواه مســـلم .

ومن الواجب عند بحث المجالس التشريعية لمسألة تتصل بالدين ، أن تحال الى لجنة دينية متخصصة ، من أعضاء المجلس ، أو من خارجه إن اقتضى الأمر ؛ وأرى أن يكون رأيها ملزما لا يجوز رفضه ، وليس استشاريا يؤخذ به أو لا يؤخذ ، لأى سبب من الأسباب، حتى لا تكون هناك ديكتاتورية مقنعة ، ولا تجرى عليه أحكام اللوائح من طلب التصويت عليه لأخذ رأى الأغلبية ، فإن الأغلبية ليست كلها من أرباب الاختصاص فى العلم الدينى ، وليست العبرة بالأغلبية العددية ، ولكن الأغلبية المقبولة هى الأغلبية النوعية، وقد يؤخذ برأى الأغلبية داخل اللجنة التى تبحث القضية وتهيئها للعرض على المجلس للموافقة، استكمالا للشكل القانونى فى التصويت على المقترحات .

وأنبه الى العناية ببحث كل مسألة بدقة وأناة، وبخاصة فى المسائل الحيوية ، وعلى رأسها المسائل الدينية ، وأن يكون التصويت صحيحا حسب النظام الموضوع فى القانون واللائحة ، وأن تكون هناك أولويات لبحث المسائل ، يراعى فيها تقديم الأهم على المهم ، والعناية به أكبر ، واذا تمكنت من النفوس رقابة الله، والإخلاص للمصلحة العامة ، سارت الأمور فى مجراها الطبيعى ، وقوى الأمل فى إنتاج مثمر .

إن من آداب الممارسة الديمقراطية ، أن يحس المشرعون أن مهمتهم تكليف أكثر مما هى تشريف ، والمسئولية فيها مضاعفة فى الخير والشر ، فينبغى البعد عن الظهور والمباهاة ، وعن الجدل العقيم الذى قد يشجع عليه أحد أمرين ، شهوة الكلام ، والغلب على الخصم المخالف ، فمن أبرز صفات العقلاء ، أنهم يسرون لظهور الحق ، حتى لو كان على لسان غيرهم فى مقام المناقشة والجدل ، لأن غايتهم الأولى الوصول الى الحق وكفى ، ولله در الإمام الشافعى ـ وهو من هو فى الذكاء وقوة الحجة ـ حيث يقول: « ما ناظرت أحدا قط على الغلبة ، ووددت اذا ناظرت أحدا أن يظهر الحق على يديه ، ويقول أيضا : وددت أن الخلق تعلموا هذا العلم ، على ألا ينسب الى حرف منه » (١)٠

إن قيمة عضو التشريع ، هى فيما ينتهى اليه عمله من مشروعات مثمرة ، لا فى كثرة كلامه بداع وبدون داع، فذلك مرفوض دينا وعرفا، «جعجعة ولا أرى طحنا» أرجو ألا يكرر عضو ما تحدث فيه غيره ووافقه عليه ، فإن كانت هناك معارضة تكلم ، وإن كان هناك جديد أضافه ، وإلا فلا داعى للكلام ، ولا يهمه أن يقول عنه من انتخبوه إن كلامه قليل ، فيسحبوا منه الثقة عند

---

(١) احياء علوم الدين جـ ١ ص ٢٤

عزمه على الترشيح مرة أخرى ، فالتكرار ضياع للوقت والجهد ، وضياع للمال أيضا ، بكثرة الجلسات والاجتماعات ، التى يمكن أن تتقلص الى الحد الضرورى لا غير ، وحسب من لم يجد جديدا يتكلم فيه أنه وافق على ما قيل ، ففيه إبراء للذمة ، وفيه مثوبة من الله ، بحسب النية ، فالأعمال بالنيات كما هو معروف .

وأنبه أيضا الى أن من ليس له اختصاص فى بحث ، أن يترك النقاش لغيره من ذوى الاختصاص فيه ، فليس من المفروض فى كل عضو أن يجيد الكلام فى كل شىء ، والأعضاء فى هذه المجالس ، بل الناس جميعا ، متعاونون لخدمة الوطن ، كل فيما يخصه ، وبالقدر الذى يستطيعه ، وفى كل مسألة يوجد أهل الذكر ، والله يقول : « فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون » (١) .

كما أنبه الى وجوب مراعاة المصلحة العامة فى التشريع ، لا مراعاة مصلحة خاصة ، فردية أو حزبية ، أو إقليمية مثلا ، والنظام الحزبى ، أو المعارضة بوجه عام ، وإن كانت مظهرا من مظاهر الديمقراطية بالتعبير الحديث ، فان التعصب المغرض - أو الأعمى كما يقولون - يعمى صاحبه فلا يرى الحق ، ويصمه فلا

---

(١) سورة الأنبياء : ٧

يسمع النصح ، فهو يتلمس سقطات الغير ويجسمها ، وينكر محاسنه ولو ظهرت كالشمس ، وبالعكس يبرز محاسنه هو ويبالغ فى تعظيمها ، ويخفى سيئاته أو يحاول تبريرها ، فالهم الأكبر عنده هو الانتصار على الخصم بأى طريق يكون ، وتكون المصيبة أفدح اذا كان التعصب من أجل الهدم لذات الهدم ، فالأمر لا يعدو أن يكون تنافسا على المراكز والمناصب ، أكثر مما هو تنافس على تقديم خدمة عامة ٠

وبهذه الصورة المنحرفة ، تبعثر الجهود ، ويقتل الوقت ، وتبدد الأموال ، وتزداد الهوة اتساعا بين أبناء الوطن الواحد ! ونظل كما يقال : « محلك سر » وإن كان هناك تقدم فببطء شديد ، أشبه بحركة السلحفاة، التى قد يكون لها عذرها ، لأنها تعمر سنين طوالا ، فلا داعى للعجلة ، أما نحن فأعمارنا قصيرة وآمالنا الطموحة كثيرة ٠

ومن هنا يجب السعى اليها حثيثا ، وإنجازها بسرعة ، لتحقيق ما يمكن تحقيقه ، فالانسان فى الدنيا ينبغى أن يكون كالغريب ، اذا أصبح فلا ينتظر المساء واذا أمسى فلا ينتظر الصباح ٠

إن الشعب الذى وضع فى النواب ثقته ينتظر منهم

الخير ، وأى خير يرجى وراء هذا السلوك المنحرف ؟ : « على نفسها جنت براقش » لأنه هو الذى اختارهم فخيبوا آماله : « إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها » (١) ، ينبغى أن تعطى المشكلات الحيوية الخطيرة من الاهتمام ما هو جدير بها ، وهذا يقتضى ـ الى جانب ما سبق ذكره ـ توحيد الجهود ، وادخارها لبحث المسائل المشتركة ، التى تحقق الخير للجميع ، وفى هذا المقام يحضرنى ما ذكره ابن الأثير فى نهايته : « مادة أرس » من أن عاهل الروم انتهز فرصة الخلاف بين على ومعاوية ، فكتب الى معاوية يعرض عليه مساعدته ضد خصمه ، فتنبه معاوية الى هذا الخبث ، إذ كيف يعرض عليه عدوه هذه المساعدة ، وهو يحتل أرضا كانت تحت سلطانه ؟ إنها ليست حبا منه لمعاوية ، ولكنها إذكاء لنار الفتنة لتأكل الأخضر واليابس ، وتضعف الطرفين ليسهل عليه استرداد ما فقد منه .

كأن معاوية تذكر قصة الأسد الذى أراد أن يتغلب على ثورين : أحمر وأبيض ، يزاحمانه فى الغابة ، فعرض على الأحمر أن يتعاونا على التخلص من الثور الأبيض ، فوافق وأكله الأسد ، وهنا أحس الأحمر أن الدائرة ستدور عليه لعدم وجود من يساعده ضد العدو

(١) سورة الاسراء : ٧

المشترك ، فانقض عليه وتخلص منه كما تخلص من الأول ، وهنا شاع المثل : أكلت يوم أكل الثور الأبيض.

كأن معاوية تذكر هذه الصورة ، فرد على عاهل الروم بكتاب جاء فيه : أعلم أنى وعليا أخوان تنافسا فضلا وتسابقا خيرا ، فان لم تكف عن مقالتك لأجردن عليك جيشا يكون أوله عندى (بالشام) وآخره عنده (بالعراق) حتى أورثه الأرض التى تحت قدميك .

إن نواب الشعب فى المجالس التشريعية ، هم فى زماننا أهل الحل والعقد ، كما كان العلماء ـ وهم فقهاء الدستور والقانون فى الأزمنة الأولى ـ قد يكون بعضهم معينين من قبل ولى الأمر ، والبعض الآخر مختارين من الشعب ، بنظام الترشيح والانتخاب على أية صورة تكون ، وهنا نوجه النظر الى تعيين ذوى الكفاية علما وخلقا ، أو دراية وسلوكا ، والى انتخاب هذا النوع من الرجال على ضوء الإرشادات التى قررها الدين فى هذا المجال .

وانطلاقا من وجوب اختيار ذوى الكفاية نقول : أعضاء المجالس التشريعية هم أبناء الشعب ، والشعب اذا تربى تربية دينية ، سيتقدم منه للترشيح من يأنس من نفسه هذه الكفاية ، ولا يجرؤ غيره أن يقحم نفسه فى

عمل خطير ، تحرج عنه كثيرون ممن يخشون الله ، فلم يجدوا أنفسهم أهلا للتشريع ، وهذا الشعب المتدين هو الذى يختار وينتخب المرشح ، ونؤكد هنا وجوب اختيار الكفء علما وخلقا ، فكرا وسلوكا ، دون مراعاة لدوافع أخرى مادية أو أدبية ، فهو شريك له فيما يناله ، من ثواب إن وفق ، ومن عقاب إن أخفق .

والتزاما بأخلاق الدين ، سيكون خوض المعركة فى هذا الإطار ، ولا يقبل من المرشح أن يزيف على الشعب بذكر محاسنه ، وكتمان مثالبه أو تبريرها ، ولا أن يعد وعودا مغرية ، هو يعرف فى قرارة نفسه أنها للاستهلاك لا للتحقيق ، ولا أن يستعين بالخطباء والأجهزة التى تروج له بأساليبها المختلفة . والرسول ﷺ حذر من خطباء الفتنة ، وهؤلاء يشبهونهم إن لم يكونوا هم ، ستقرض شفاههم ، وتشرشر أشداقهم فى النار ، والله سبحانه يقول : « يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون . كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون »(١) .

وعلى القائمين بتنظيم عملية الانتخاب أن يلتزموا الحيدة والنزاهة ، لأنهم من الشعب المفروض فيه أنه متدين ، لا يعرفون المحسوبية ، ولا تغريهم المغريات ،

---

(١) سورة الصف : ٢ ، ٣

ولا ترهبهم التهديدات ، فهم مسئولون أمام الله قبل أن يكونوا مسئولين أمام غيره ،والوقوف الصامد أمام العوامل التى تؤثر على نزاهة الانتخاب له أثره الواضح فى احقاق الحق وفى المثوبة الكبرى عند الله ، وأذكر هؤلاء جميعا بقول النبى ﷺ : « من التمس رضا الناس بسخط الله وكله الله الى الناس ، ومن التمس رضا الله بسخط الناس كفاه الله مئونة الناس»(١).

إن الذين اختاروا هؤلاء المرشحين أنابوهم عنهم ، وشهدوا لهم بالكفاية ، فليعلموا أن عمل النائبين سينعكس عليهم ، لأنهم وكلاء عنهم برضاهم ، والراضى بعمل غيره شريك له فى المسئولية ، وقد زكوهم وشهدوا لهم ، فلا بد أن تقع التزكية موقعها ، وأن تكون الشهادة صادقة مطابقة للحقيقة ، وإلا كانت كذبا وزورا وتزييفا وتضليلا، واذا أبى الشخص أن يوكل عنه شخصا فلا إثم عليه فى رفض اختياره ، على أن يكون الرفض لأسباب مشروعة ، حتى يعفيه الله من المسئولية ، واذا طلب للشهادة بكفاية مرشح فليشهد حقا ، وهو حر يختار دون حساسية ، أو خوف ، وليدون رأيه فيه قبولا أو رفضا ، والامتناع عن ذلك فيه مساءلة

---

(١) رواه الترمذى وغيره بسند حسن .

واذا كانت له مبررات فليستعد للإدلاء بها أمام الله ، وهو وحده الذى يقدر ويحكم ، وليس هناك فى الدين ما يمنع من عمل اجراءات لتنظيم هذه العملية ، اذا استهدفت الخير والمصلحة العامة ، والله رقيب حسيب .

هذا ، واذا كان من مهمة السلطات التشريعية الرقابة على الجهاز التنفيذى ، الذى يتولى تطبيق القوانين والقرارات التى تصدر عنها ، فان هذه الرقابة مظهر من مظاهر الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، واذا كان الشعب كله متضامنا فى هذه الرقابة بمقتضى قوله تعالى : « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون »(١) وقوله ﷺ « من رأى منكم منكرا فليغيره بيده ، فان لم يستطع فبلسانه ، فان لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان » (٢) .

فإن المجالس التشريعية نائبة عن الشعب فى هذه المهمة ، كما أن لها أن تراقب الجهاز التنفيذى ، بحكم الاهتمام بمصير القوانين والقرارات التى تصدر عنها ، وستدور فيها مناقشات كثيرة ، تثيرها تساؤلات واستجوابات .

(١) سورة آل عمران : ١٠٤

(٢) رواه مسلم .

الرقابة الشـــعبية

وإليكم مثلا من الرقابة الشعبية على الجهاز التنفيذى قبل أن يكون ذلك من أعمال التشريع ، أو الرأى العام المنظم فى العصر الحديث .

يذكر المؤرخون أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، أرسل سعيد بن عامر بن جذيــم الجمحى واليا عــلى حمص ، وكان من أجود الزهــاد ، فاجتمــع عمر فى إحدى جولاته بأهل حمص وقال لهم : يا أهل الــكوفة كيف وجدتم عاملكم ؟ وكان يقال لأهل حمص الكويفة الصغرى لشكايتهم عمالهم ، فشكوا منه أربعة أمــور ، أولها أنه لا يخرج الى الناس حتى يتعــالى النهار ، وثانيها أنه لا يجيب أحدا بليل ، وثالثها أن له يوما من كل شهر لا يخرج اليهم فيه ، ورابعها يغط الغطة بــين الأنام ، حتى تأخذه موتة ، أى يغلب عليه النوم كأنه ميت ، فجمع عمر بينه وبينهم ، فأجابه وهو كاره لما يذكره بما يلى :

أمـا الأولى فليس لأهـلى خـادم ، فأعجن عجينى وأجلس حتى يختمر ، ثم أخبز خبزى ، ثم أتوضأ وأخرج إليهم ، وأما الثانية فإنى جعلت النهار لهـم وجعلت الليل لله ، وأما الثالثة فإنه ليس لى خادم يغسل ثيابى، ولا ثياب لى بدلها ، فأغسلها وأجلس حتى تجف ، ثم ألبسها وأخرج اليهم آخر النهار ، وأما الرابعة فإنى شهدت مصرع خبيب الأنصارى وقد بضعت قريش لحمه ثم حملوه على جـذع ثم قالوا له : أتحب أن محمـدا مكانك ؟ فقال : والله ما أجدنى فى أهلى وأن محمـدا يشاك بشوكة ثم نادى : يا محمد ، فما ذكرت ذلك اليوم وتركى لنصرته فى تلك الحالة وأنا مشرك لا أومن بالله إلا ظننت أن الله لا يغفر لى بذلك الذنب أبدا . فتأخذنى تلك الغطة ، فكافأه عمر بألف دينار ، ولكنه وزعهـا على الفقراء .

ولعل فى هذه الحكاية ما يشير الى وجوب الصـدق فى الإجابة على الأسئلة والاستجوابات ، والى مكافأة من تثبت براءتهم عند المحاكمة كرد اعتبار ، يشجع غيرهم على الإخلاص فى العمل ، ويضع حداً للاتهامات قبل التحرى والتثبت ، واضعا أمام أعين هؤلاء جميعا قول الله تعالى : « ربنا إنك تعلم ما نخفى وما نعلن ،

وما يخفى على من شىء فى الأرض ولا فى السماء » (١)
وقوله : « ولا تقف ما ليس لـك به علم ، إن السـمع
والبصر والفـؤاد كل أولئـك كان عنــه مسؤلا » (٢)
وقوله : « والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير مـا
اكتسبوا فقد احتملوا بهتانا وإثما مبينا » (٣) .

●●●

---

(١) سورة ابراهيم : ٣٨
(٢) سورة الاسراء : ٣٦
(٣) سوزة الأحزاب : ٥٨

من صــور الشورى

وأخيرا وليس آخراً ، أضع هذه الصورة أمام مجلس التشريع عند أخذ الأصوات على موضوع • فقد روى البخارى وغيره ، أن وفد هوازن جاءوا الى النبى ﷺ يطلبون رد ما غنمه المسلمون منهم ، وبخاصة الأسرى، فخطب فى أصحابه وقال : « إن إخوانكم قد جاءوا تائبين ، وإنى قد رأيت أن أرد عليهم سبيهم فمن أحب منكم أن يطيب - أى يوافق بطيب نفس - فليفعل ، ومن أحب منكم أن يكون على حظه حتى نعطيه إياه مما يفىء الله علينا فليفعل » فقال الناس : قد طيبنا ذلك يا رسول الله فقال ﷺ : « إنا لا ندرى من أذن منكم فى ذلك ممن لم يأذن ، فارجعوا حتى يرجع الينا عرفاؤكم أمركم » فرجع الناس فكلمهم عرفاؤهم ثم رجعوا الى رسول الله ﷺ فأخبروه أنهم قد طيبوا أو أذنوا » (١) •

إنها الشورى الحقة فى أمر يهم الناس جميعا ، والتأكد ممن وافق ومن لم يوافق ، ونظام انتخاب الشعب عرفاء ووكلاء عنه ليقدموا رأيهم فى المسائل الهامة •

---

(١) الزرقانى على المواهب جـ ٤ ص ٣

٢ ـ السلطة التنفيذية :

هذه السلطة حكومة أو جهاز إدارى يعينه الحاكم العام ، أو يكل الى وزير مفوض عنه بتكوينه ، ويكون مسئولا أمامه وأمام الشعب فى النظم الديمقراطية ذات المجالس التشريعية ، وهو يتكون من وزارات ومؤسسات وإدارات ذات أسماء مختلفة ، بها عاملون ينفذون ما يوكل اليهم من أمور تحت رقابة ومسئولية ، والجميع فى الحكم الاسلامى مسئولون أمام الله سبحانه .

إن كل هؤلاء العاملين بالجهاز التنفيذى ، هم فى الحقيقة خدام للشعب ، لا سادة متسلطون ، وعلى الشعب أن يعترف لهم بذلك ، ويساعدهم على أداء مهمتهم ، فالخير عائد على الجميع ، وهنا يجب أن يختار ولى الأمر حكومته من ذوى الكفاية والدراية ، ومن ذوى الأخلاق الكريمة ، والماوردى فى كتابه : « الأحكام السلطانية » وضع مواصفات لرئيس الحكومة « رئيس الوزراء » الذى هو واسطة بين الحاكم والشعب ينفذ سياسته ، ويرفع اليه تقريرا عما قام به ، وتقوم هذه المواصفات فى رأيه على أمور أهمها :

١ ـ الأمانة حتى لا يخون فيما أؤتمن عليه ، ولا يغش فيما يستنصح فيه ، وهذا الشرط يقضى على الطمع فى

أموال الدولة ، وعلى التحايل على الأخذ منها بصور ربما لا يدينها القانون الوضعى ، كالمصاريف السرية، والمكافآت السخية ، للأقارب وذوى الصلات المختلفة، عن أعمال قد تكون وهمية ، والتهام المنح والدعم ، والتلاعب بعطاءات المشروعات وغيرها .

ألا فليعلم كل مسئول أن الدرهم الذى ليس له مقابل مشروع هو سحت ، وكل لحم نبت من سحت فالنار أولى به ، ان عمر بن عبد العزيز كان ينجز أعمالا للدولة ليلا على ضوء مصباح كان زيته من خزينة الدولة ، فلما انتهى منها وأراد أن ينجز أعمالا خاصة له أطفأ المصباح ، حيث لا حق له فى الانتفاع به لخاصة نفسه .

وعمر بن الخطاب رضى الله عنه، طلبت منه بنته حفصة صلة من الأموال العامة فمنعها ، فناشدته الله والرحم، فرد عليها : حق الرحم فى مالى لا فى مال المسلمين .

ولما خرج فى رحلة رسمية الى الشام ، اعتمد فى مال الدولة بعيرا لا يستطيع أن يحمل راكبين معا ، وغلاما كان يعتقب معه البعير ، يركب مرحلة ويمشى أخرى ، وحرم على نفسه أكل اللحم عام المجاعة ، حتى شكت بطنه من الزيت الذى يأتدم به وذلك حتى يشارك الناس أزمتهم ، فيجتهد فى إخراجهم منها ، لأنه يحس بما

يحسون ، وقد جعل نفسه كالوصى على اليتيم : « ومن كان غنيـــا فليستعفف ومن كان فقـــيرا فليـــأكل بالمعروف » [١] .

٢ ـ الصدق ، وذلك حتى يؤمن بخبره فيما يؤديه ، ويعمل على قوله فيما ينهيه ، وبهذا الشرط يقضى على التقارير الكاذبة ، والدعاية المضللة ، من أجل التملق أو ستر العيوب ، يجعل فيها الخامل بطلا ، ويصبح اللص شريفا .

٣ ـ قلة الطمع حتى لا يرتشى فيمالىء ، ولا ينخدع فيتساهل ، وبهذا الشرط تختفى الرشاوى والإكراميات، التى لا تكون إلا لغرض لا يتحقق بحكم القـــانون ، ويقضى على المحسوبيات التى تولى من لا يصـــلح ، وتكيل له الترقيات والتشجيعات ، وتسرق الملفـــات وتخفى شواهد الإثبات .

٤ ـ السلامة من العدواة والشحناء بينه وبين الناس، فالعداوة تصد عن العدل والتناصف ، والشحناء تمنع من الرحمة والتعاطف .

---

(١) سورة النساء : ٦

٥ ـ قوة الذاكرة لما يؤديه الى الحاكم وما يؤديه عنه، لأنه شاهد له وعليه ، ولعل هذا الشرط كان قبل أن تخترع السجلات ، وتنظم الدفاتر ، وتنتشر التسجيلات .

٦ ـ الذكاء والفطنة ، حتى لا تدلس عليه الأمـور فتشتبه ، ولا تموه عليه فتلتبس ، فلا يصح مع اشتباهها عزم ، ولا يصلح مع التباسها حزم .

٧ ـ ألا يكون من أهل الأهواء ـ الدينية والسياسية ـ فيخرجه الهوى من الحق الى الباطل ، ويتدلس عليه المحق من المبطل ، فإن الهوى خادع للألباب ، وصارف له عن الصواب ، وفى المأثور : حبك الشىء يعمى ويصم .

٨ ـ الحنكة والتجربة ، التى تؤديه الى صحة الرأى، وصواب التدبير .

●●●

من الإصـــــلاح الإدارى

هذه المواصفات بالتعبير الجارى فى زمانه ، وبالمفهوم الذى يتناسب مع نظام الحكم فى أيامه ، يمكن أن تأخذ صبغة أخرى حديثة ، وتتفرع عنها وقائع وأحداث كثيرة. والمقام لا يتسع لشرح غوامضها التى لبست ثوبا أدبيا بمحسنات بديعية ، وكلها تتركز فى العلم والخلق، وهما أساس النجاح فى كل عمل ، وقد سبق قول سيدنا يوسف، يخاطب عزيز مصر ، كما حكاه القرآن الكريم : « قال اجعلنى على خزائن الأرض إنى حفيظ عليم » (١) وقول بنت شعيب له فى استئجار موسى : « يا أبت استأجره ، إن خير من استأجرت القوى الأمين » (٢) .

والرسول ﷺ لم يول أبا ذر الغفارى ولاية ، وقال له : « « إنك ضعيف وإنها أمانة ، وإنها يوم القيامة خزى وندامة ، إلا من أخذها بحقها وأدى الذى عليه فيها » (٣) . وكان يختار الاكفاء للأعمال التى تناسبهم،

---

(١) سورة يوسف : ٥٥
(٢) سورة القصص : ٢٦
(٣) رواه البخارى ومسلم .

لا دخل لقرابة أو صداقة ، بل حتى للسبق فى الاسـلام وعمل البر ، فذلك شىء والمهمة شىء آخر ، لها من هو كفء لها .

لقد ولى أسامة بن زيد ـ وهو شاب ـ قيادة جيش سار الى الشام وفيه علية القوم ، وولى عمرو بن العاص على سرية ذات السلاسل ، لأنه كفء لقيادتها ، عـلى الرغم من وجود من هو أقدم منه إسلاما .

والأمثلة كثيرة فى أيام الرسول ، والخلافة الراشدة ، ويجمع ذلك تلك العبارة الحديثة الجارية على الألسنة : وضع الشخص المناسب فى المكان المناسب ، وبدون ذلك تفسد الأمور حتما ، وهو أمر مشاهـد حتى فى عالـم الجماد ، لو وضع الانسان قطعة خشب أو حديد فى غير مكانها المناسب من الآلة أو الجهاز لم تنتج النتيجـة المطلوبة ، إن لم تنتج أصـلا ، أو لم يترتب عليهـا فساد وخسران ، وقد صرح النبى ﷺ بذلك حين سئل عن قيام الساعة ، وهى لا تقوم إلا عند فساد الحياة ، وعدم الأمل فى صلاحها ، فقال : « إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة » قيل : وكيف اضاعتها ؟ قال : « إذا وسـد الأمر الى غير أهـله فانتظر الساعة »(١) .

---

(١) رواه البخارى .

ويوضح هذا ويحذر منه قوله أيضا : « من استعمل رجلا من عصابة - جماعة - وفيهم من هو أرضى لله منه فقد خان الله ورسوله والمؤمنين » (١) والحديث الأول يبرز شرط الخبرة ، والثانى يبرز شرط الخلق .

ومن المعلوم أن الوزارة أو المؤسسة سيعين لها رجال تقدر لها منازلهم ، وتحدد اختصاصاتهم ، ويخضعون للمراقبة والمساءلة ، وهناك وصية عامة بالحد من الأجهزة ومن العاملين بها ، فلسنا فى حاجة الى إنشاء مصالح أو إدارات ، أو أقلام يحشد لها عدد كبير من العاملين ، ويرصد فى الميزانية مبلغ كبير ، قد يكون خدمة لبعض ذوى الشأن ، أو كمظهر من مظاهر الأبهة والسلطان والنفوذ ، كإدارة عموم الزير - التى كتب عنها بعض الكتاب - لها مدير ووكيل وسكرتير ، وكتاب وجهاز دعاية يعلن عن الخدمات التى تؤديها ، فى حين أن عاملا واحدا يمكنه أن ينظف الزير ويملأه ، ويسقى العطاش منه دون كبير عناء ، ولا حاجة الى هذا الحشد الكبير من العاملين فى الإدارة العامة للزير .

(١) رواه الحاكم وصححه .

إن هذه المؤسسات فى علاقتها مع ولى الأمر ناصحة مرشدة ، تنفذ ما تراه صالحا بعد الاتفاق عليه فى حدود القانون وما يلزمه ، وتعطى له الصورة الصحيحة للواقع فيما تحتاج وفيما تنتج ، دون زيف بالإفراط أو التفريط واذا لم تستطع القيام بمهمتها على الوجه المطلوب ، كان من الخير لها أن تطلب إعفاءها قبل أن تعفى ، فأثر ذلك معروف عند النـاس على المستوى المحلى والعالمى ، وطلب الإعفاء لعـدم القدرة عـلى الوفاء بالتزامات العمل دليل على صدق الرغبة فى الإصلاح ، وعلى الخوف من الله سبحانه ، وذلك له أمثلة كثـيرة فى التاريخ .

٤ ـ السلطة القضـائية :

هذه السلطة يفترض فيها الكفاءة والنزاهة فى أعلى مستوى ، لأنها الجهة التى تحرس القانون ، ويطمئن اليها المتحاكمون ، لمنع الظلم وانصاف المظلوم ، وهى اذا فسدت كفاءة أو نزاهة ، فسد صمام الأمن ، وضاعت الحقوق ، وسادت الفوضى ، وانقلب المجتمع الانسانى الى غابة ، يأكل فيها القوى الضعيف .

والقاضى ـ وإن كان فى نظام الحكم الاسلامى يحكم بما أنزل الله ، أو بما انتهى اليه نشاط السلطة التشريعية

فى الحق ، هو فى بعض الأحيان له اجتهاده ، يشرع عند عدم مواتاة النص للقضية التى يفصل فيها .

وأحكام المحاكم تنزل أحيانا منزلة القانون ، ومن هنا كان مقام القاضى خطيرا ، ولخطورته تحرج عنه بعض كبار العلماء من سلف الأمة ، ولهم فى التملص منه حيل معقولة .

لقد عرض الخليفة العباسى ، أبو جعفر المنصور ، القضاء على الإمام أبى حنيفة فاعتذر ، ونصحه بتقوى الله والخوف منه ، وقال فى اعتذاره : والله ما أنا مأمون الرضا ، فكيف أكون مأمون الغضب ؟ ولك حاشية يحتاجون الى من يكرمهم من أجلك ، ولا أصلح لذلك. وسئل عن قوله : لا أصلح ، بأنه إن كان صادقا فيه فالأمر واضح فى عدم صلاحيته وإن كان كاذبا فيه فالكاذب فقد شرط العدالة ، والقاضى لا بد أن يكون عدلا لا يرتكب ما يتنافى مع النزاهة .

وجاء فى القضاء وما يتصل به ، الى جانب ما سبق ذكره من قوله تعالى : « يا داود إنا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق » [١] وقوله تعالى :

(١) سورة ص : ٢٦

« وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعــدل » (١) ، وقول النبى ﷺ : « القضاة ثلاثة : واحد فى الجنة ، واثنان فى النار ، فأما الذى فى الجنة فرجل عرف الحق فقضى به ، ورجل عرف الحق فجار فى الحكم فهو فى النار ، ورجل قضى للناس على جهل فهو فى النار »(٢).

والذين يساعدون القضاة بالادعاء والدفاع والشهادة وغير ذلك ، نضع أمام أعينهم هذه النصوص ، التى سبق ذكر بعضها ، ولا بأس من أعادتها ، هى قول الله تعالى : « ولا تقف ما ليس لك به علم ، إن السمــع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا » (٣) ، وقوله : « والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير مــا اكتسبوا فقد احتملوا بهتانا وإثما مبينا » (٤) وقوله : « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنــآن قوم على ألا تعــدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى، واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون »(٥) وقوله : « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين ، إن

---

(١) سورة النساء : ٥٨

(٢) رواه ابو داود والترمذى وابن ماجه .

(٣) سورة الاسراء : ٣٦

(٤) سورة الأحزاب : ٥٨

(٥) سورة المائدة : ٨

يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما ، فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا ، وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً » (١) وقوله : « فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور » (٢) وقوله : « ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم ، إن الله لا يحب من كان خوانا أثيما . يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم إذ يبيتون ما لا يرضى من القول وكان الله بما يعملون محيطا . ها أنتم هؤلاء جادلتم عنهم فى الحياة الدنيا فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة أم من يكون عليهم وكيلا » (٣) وقول النبى ﷺ : « من خاصم فى باطل وهو يعلم - وفى رواية أو أعان عليه - لم يزل فى سخط الله حتى ينزع » (٤) وقوله : « إنما أنا بشر وإنكم تختصمون إلى ، ولعل بعضكم يكون ألحن بحجته من بعض فأقضى بنحو ما أسمع ، فمن قضيت له بحق أخيه فإنما أقطع له قطعة من النار » (٥) وقوله فى أكبر الكبائر : « ألا وقول الزور وشهادة الزور » (٦) وما

(١) سورة النساء : ١٣٥
(٢) سورة الحج : ٣٠
(٣) سورة النساء : ١٠٧ - ١٠٩
(٤) رواه أبو داود والطبرانى باسناد جيد .
(٥) رواه البخارى ومسلم .
(٦) رواه البخارى ومسلم .

زال يكررها حتى ظن الصحابة أنه لا يسكت .

بعد ذكر ما تقدم من وسائل إصلاح الشعب والسلطة على ضوء الاسلام ، أقول : لو فهمنا الدين فهما صحيحا ، وطبقناه تطبيقا صحيحا لتبين أن الاسلام فيه علاج لكل المشكلات ، وأمكن تغيير وضعنا الى وضع يليق بأمة هى خير أمة أخرجت للناس .

فلا بد من التفكير العميق فى استخدام الحماس ، والعواطف والصحوة ، استخداما صحيحا ، فما أكثر وأسهل أن تتردد الشعارات ، ولكن الصعب هو كيف نصل الى الاسلام علما وعملا ، لا بد من التفكير المتأنى للوصول الى الهدف ، بدون آثار ضارة ، أو بأقل الأضرار ، ولا يكفى أبدا استخدام النصوص عند التطبيق بعيدا عن مراعاة الظروف ، فقد تكون هناك أمور مسلمة ، لا يشك فى صدقها أحد ، كقوانين العلوم الرياضية مثلا ، لكن التمسك بحرفية النص دون إعمال العقل يمنع الإفادة منه .

●●●

النص والعقـــــل

دخل مفتش فصلا فى مدرسة فى حصة الحساب، فطرح سؤالا على الأطفال يقول : شجرة عليها مائة عصفور ، ضرب الصياد واحدا منها ببندقيته فمات ، فكم عصفورا يبقى على الشجرة ؟ فأجابوا جميعا بسرعة : يبقى تسعة وتسعون ، فنهض طفل نجيب وقال : لا يبقى على الشجرة شىء ، لأنها خافت وطارت ، إنه أدخل الظروف فى اجابته فصحت ، ولو أن السؤال كان : كم يبقى من العصافير على قيد الحياة ؟ لكانت إجابات الأطفال صحيحة ، لكن السؤال عن الذى يبقى على الشجرة ساكنا ، بعد سماع صوت البندقية .

أذكر أن بعض الحكام أراد أن يختار قائدا لجيش يقوم بمهمة كبيرة ، فجمع بعضا منهم وأراد أن يختبر ذكاءهم فى حسن التصرف ، فوضع على وسط بساط كبير حجرا ، وقال لهم : من الذى يستطيع أن يأتى بهذا الحجر بسرعة ، دون أن يمشى على البساط ، أو يستعمل أية أداة ؟ فعجزوا ، إلا واحـدا ، قام بلف البساط وطيه ، حتى تناول الحجر ، ثم أعاد البساط

مفروشا كما كان ، فقالوا : إنها فكرة سهلة ، فقال لهم الحاكم : نعم سهلة ، ولكن لم تخطر لكم بسرعة على بال ، والمعارك تستدعى سرعة البديهة وحسن التصرف والتمرس على مواجهة الظروف الملحة .

نعم إن الجهد الحقيقى هو جهد الفكر الذى يوصل الى الغاية من أقرب طريق ، والمعارك الحربية قديما وحديثا كان الانتصار فيها يعتمد الى حد كبير على الفكر ، والتخطيط السليم .

●●●

المسئولية مشتركة

أعود فأكرر أن التغيير الشامل مهمة جماعية ، ومن الخطأ إلقاء التبعة على جهاز دون جهاز ، فالمرض قد تكون له عدة أسباب ، ولابد من الدقة فى التشخيص ، واشتراك أكثر من معالج ، لمعرفة كل الأسباب، ومباشرة العلاج على ضوء هذه المعرفة .

أذكر بهذه المناسبة أن بعض الموجهين الرسميين للفكر ، فى بلد إسلامى ، جمع صفوة من علماء الدين المشتغلين بالدعوة ، وقال لهم : صلاح المجتمع وفساده يقع على عاتقكم ، فحملهم وحدهم المسئولية ، وقد يكون ذلك فى ظاهره تقديراً لدور العلماء واعترافا بأثرهم الاجتماعى ، لكن يخشى فى النهاية التنكر لهم إن نجحت الحركة الموجهة ، وينسب الفضل لغيرهم ، وإن فشلت تحمل العلماء كل التبعة وعوملوا معاملة غير لائقة ، والناس فى التملص من المسئولية أذكياء ، وفى إلقائها على غيرهم أشد ذكاء .

وقد علق بعض الحاضرين على ذلك وقال : إن هذا الكلام مبنى على الأثر الذى يتردد كثيرا على الألسنة :

« صنفان من الناس اذا صلحا صلح الناس ، واذا فسدا فسد الناس» وعلى الرغم من عدم صحة نسبته الى النبى ﷺ فإن الواقع يؤيده ، ذلك أن العلماء يشرعون والأمراء ينفذون .

انطلاقا من ذلك قال المعلق : هذا الأثر يفيد اشتراك الجهتين بعضهما مع بعض فى المسئولية ، فالإصلاح جماعى ، يتحمل كل فريق أوجهة بعضا منه حسب اختصاصه وامكاناته ، ثم وضح ذلك بقوله : قد يكون الخطيب على المنبر يوم الجمعة يكاد بشفافية روحه وروعة أسلوبه ، وقوة حجته ، أن يأخذ بألباب السامعين ويعيش معهم دقائق فى روضة من رياض الجنة ، وفى متعة روحية كواحة فى صحراء ، تخفف ما يعانون من متاعب وآلام ، فاذا انتهوا من الصلاة وخرجوا من المسجد وسمعوا أغنية ماجنة ، أو رأوا صورة فاضحة ، أو منظرا خارجا على الآداب يحميه حق الحرية ، ذابت حلاوة الخطبة ، وخفت صوت الموعظة ، وزاح الجو الروحى الممتع الذى كانوا يعيشون فيه من قبل، وبهذا يضيع فى لحظة ما تعب الخطيب فى غرسه ، وهكذا شأن الدعاة والمربين ، كلما بنوا هدم الآخرون ، فلابد من تعاون الجميع على الإصلاح .

متى يبلغ البنيان يوما تمامه
إذا كنت تبنيه وغيرك يهدم

وفى هذا الإطار يجب أن نؤمن بقول الله تعـالى : « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر » (١) وبقوله : « واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة » (٢) وبالحديث الشريف الذى ضرب فيه الرسول ﷺ المثـل بركاب السفينة ، إن تعاونوا على منع من يريد خرقها نجـوا جميعـا ، وإن تركوه هـلكوا جميعـا . لقـد كانت الزوجة من نساء السلف تقول لزوجها اذا خرج يبتغى لهم رزقا : اتق الله وإياك والحرام ، فإنا نصبر عـلى الجوع ولا نصبر على النار .

كنت ألقى موعظة بأحد المساجد ، فى مدينة ساحلية، يرتادها المصطافون من الجنسين ، فهب أحد الحاضرين ينعى بشدة على تقصير العلماء والحكومة فى منع مـا يرتكب على الشواطىء من مخالفات أخلاقية ، وبعـد طول نقاش معه يحاول فيه أن يلقى التبعة كلها عـلى العلماء والحكام ، مع أن العلماء لا يملون من التنبيـه على خطورة ذلك دينا ودنيا ، والحـكام وضعوا مـا وضعوا للحفاظ على الآداب ، وإن كنا نريد مزيدا من

---

(١) سورة التوبة : ٧١
(٢) سورة الأنفال : ٢٥

القرارات ، ومزيدا من إحكام الرقابة ، لكنى أحسست أن وراء هذه المحاولة سرا ، فسألته : أصدقنى ، أين زوجتك الآن ؟ فقال باللغة العامية : « ما هو دا اللى بقول عليه » أى هذا هو الذى حملنى على الكلام ، إنه ينتظر منى - كعالم دين - أو من رجال الحكومة أن يحضروا له زوجته التى لم يستطع أن يحقق ولايتـه عليها ومسئوليته عنها ، ويلقى الحمل كله على غيره، أين هذا وأمثاله من قول النبى ﷺ : « كلكم راع وكل راع مسئول عن رعيته ، الإمام راع ومسئول عن رعيته، والرجل راع فى أهله ومسئول عن رعيته ... » (١) إن العودة الى الدين ، والحل عن طريق الاسلام ، لا يكون بالعجز ولا بالغباء ، ولا بالمكر والدهاء ، بل يـكون بالقـوة والـذكاء ، وبالصـدق فى دعـوى الانتماء ، وبالإخلاص والوفاء ، وبالتعاون فى السراء والضراء ، الحل موجود ، والذى لا يأخذ به إما جاهل ، وإما عالم لا يعرف طريق الوصول اليه ، وإما عالم به وبطـريقه لكنه يأبى الأخذ به ، تقليدا للآباء ، أو رضوخا للعرف، أو عناداً واستكبارا ، أو حرصا على سلطان ، أو خوفا من حرمان .

(١) رواه البخارى ومسلم .

والشعب كما قلت وأكرر ـ متضامن مع الحكومة فى تطبيق قوانين الاصلاح ، والقوانين الوضعية تحكم على الظواهر فقط ، وبخاصة فيما يتعلق بالسلوك الاجتماعى لتوفير الأمن على الحقوق ، وضمان القيام بالواجبات، وهناك أمور بعيدة عن سلطان القانون، لا يفيد فيها الا الدين ، بما يشتمل عليه من إيمان بالله ومراقبته ، وحرص على المصلحة العامة ٠

يحضرنى فى هذا المقام مثال ، هو : لو فرض أن القوانين الوضعية قررت ـ طبقا للشريعة ـ قطع يد السارق بعد اتخاذ الاجراءات اللازمة ، للتأكد من توافر أركان الجريمة ، وعدم وجود شبهة تسقط الحد ، فأراد شخص لا خلاق له أن ينتقم من آخر ، فادعى عليه سرقة وأحضر شهود زور ، واتخذ كل وسيلة لإثبات التهمة عليه ، وعند التقاضى أقسم الشهود على قول الحق ، وشهدوا بالسرقة ، ولم ينجح الدفاع فى نفى التهمة ، فحكم القاضى بقطع يد المدعى عليه ، وهو عند الله برىء منها ، وما أوقع الظلم عليه الا غيبة ضمير المدعى ، وشهود الزور ومن يساعدونهم ، وقد سبق الحديث الذى ينفر من التلفيق والادعاء الكاذب ، والاعتماد على بلاغة المتخاصمين ، وتضليل القضاء ،

يما يتفنن به من وسائل شكلية أو موضوعية ، يعرفها جيدا من يعيشون فى جو المحاكم .

وبمناسبة التزوير والتلفيق ، يجب على الصحافة ووسائل الاعلام المختلفة ، التى تكون الرأى العام أو تؤثر فيه ، أن تكون صادقة فى نقل الأخبار ، مخلصة فى التعليق عليها ، أمينة فى نشرها ، مراقبة لربها فى عنصر الاثارة ، وبعث الاهتمام ، والسبق الصحفى ، وما الى ذلك مما يدعو الى سوء الظن ، وإلصاق التهم بالبرآء ، تحت مظلة حرية الرأى والنقد والنشر ، فالدين يحذر من ذلك ، وقد سبقت النصوص التى تنهى عن الأخذ بما ليس للانسان به علم ، وعن إيذاء المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا ، والله سبحانه يقول : « إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عذاب أليم فى الدنيا والآخرة » (١) والنبى ﷺ يقول : « أيما رجل أشاع على رجل مسلم بكلمة هو منها برىء يشينه بها فى الدنيا كان حقا على الله أن يذيبه يوم القيامة فى النار حتى يأتى بنفاذ ما قال » (٢) أى بالدليل على الاتهام .

---

(١) سورة النور : ١٩

(٢) رواه الطبرانى باسناد جيد .

وتتأكد هذه التوصية عند الحديث عن شخصيات لها احترامها ، فلا تتلمس لهم السقطات، ولا تضخم الهنات ، التى لا يسلم منها أحد ، ففى الحديث : « أقيلوا ذوى الهيئات عثراتهم إلا فى الحدود » (١) .

●●●

(١) رواه أحمد وأبو داود .

أهميــــة العمـــــل

وفى صورة من الصور الضاغطة التى تتكتل الجهود لتغييرها والتخلص منها ، كالمشكلة الاقتصادية ، أقول: إن الحل الأمثل لها هو زيادة الانتـاج ، وترشيـد الاستهلاك ، أما زيادة الانتاج فتكون عن طريق العمل الدائب ، فى القطاعات الأساسية للموارد ، الأفـراد تتحرك وتـكد ، والمسئولون يساعدونهـم ويمهـدون وينظمون ، وبالتعاون المخلص الخالى من الأنانيـة والانتهازية ، يمكن الوصول الى حل الأزمة أو تخفيفها على الأقل ، يستوى فى ذلك التعاون المحلى فى الوطن الواحد ، والتعاون العام بين الأوطان ، فهناك إمكانات بشرية ومادية ، يستطاع بالتعاون فيما بينها حل كثير من مشكلات الاقتصاد .

رحم الله أمير المؤمنين ، عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، الذى كان يلتقط « الأنكاث » أى الخرق الباليـة فى الطرقات ، ويدفع بها الى النساء فى البيوت ، لتعيد غزلها ونسجها من جديد ، يمكن بها سد حاجة مـن الحاجات ، بدل أن تضيع سدى ، أو تصيب المـارة

بأذى ، وبمثل هذه الصورة يستغل كل شيء للمصلحة، وتتحقق خدمة لأهل البيت يزجين بها وقت فراغهن ، بدل القيل والقال ، والأفكار السوداء ، وتتفادى بـه البطالة والتعطل ، فى الوقت الذى يحتاج فيه البلد الى أقل جهد يبذل لتوفير الضروريات ، ومحاولة الاكتفاء الذاتى بقدر المستطاع •

إن من المؤسف أن نرى فى بعض المجتمعات تراخيا وكسلا ، وقلة انتاج فى قطاعات مختلفة ، تدفع الى ذلك عوامل قد تـكون صادقة وغـير صادقة ، والباحثون المختصون لهم دراساتهم فى هذا المجال ، يجب الاستفادة منها إن كانت هناك نية صادقة للاستفادة ، وتقـديم خدمة للمجتمع •

●●●

أهمية الإصلاح الإدارى

وفى المقابل نرى قيودا بقوانين وقرارات جامدة ، تحول دون التحرك للانتاج ، ويخشى القائمون عليها أو المنفذون لها تطويعها وتيسيرها ، حتى لو كان فى ذلك خسارة ، فهى مقبولة فى نظرهم ، ما دامت فى نطاق التعليمات ، كالمكاتبات الرسمية الكثيرة ، لتحصيل مبلغ زهيد تنفق عليه أضعافه مرات ، وفى خضم هذه المأساة الإدارية ، تعلو شعارات ، وتصدر وعود كثيرة ، نود لو تنزل الى واقع التطبيق ، حتى لا تنعدم أو تضعف الثقة بين الشعوب والحكومات ، وعلى كلا الطرفين قسط من المسئولية ، لا يجوز لأحد أن يتحايل للتخلص منها ، ولا أن تتحول الى ظاهرة فى الوسط الذى يريد بجد وصدق أن يطور نفسه هذه العبارة « وأنا مالى » .

●●●

الإنتمــــــاء

لابد من العمل الجاد المكثف ، لتنمية ما يطلق عليه « الانتماء الوطنى » واذا أريد بالوطن الوطن الاسلامى الكبير فالأمر واضح ، وهو انتماء للاسلام نفسه ، الذى كون الأمة الاسلامية ، واذا أريد به وطن كـل دولة اسلامية ، فالانتماء اليه يكون بتقديم كل ما يمكن من خير ، وحمايته من كل سوء .

لقد أعطى الاسلام سلطة لأولى الأمر ، أن يقـرروا ما فيه مصلحة الأمة ، إن لم يجدوه صريحا فى القـرآن والسنة ، وأمر بطاعتهم فيه ، قال تعالى : « يا أيهـا الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » (١) ويكثر ذلك فى الأمور الدنيوية ، عـلى أن تكون فى الإطار العام للدين ، ولا تصادم أمرا مقـررا فيه ، فلا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق ، وهم أعلم بشئون دنياهم ، كما صح فى الحديث الشريف .

والطاعــة فى هــذا المجال يظهر فيها معنى الانتماء

---

(١) سورة النساء : ٥٩

الوطنى ، فالتهرب من الجندية ومن الضرائب العادلة، ومخالفة قواعد المرور ، أو القرارات الخاصة بمواعيد العمل ، أو الأرشادات الخاصة بالأماكن العامة ، كالحدائق والنوادى ، كمنع التدخين وعدم التزاحم ، وإلقاء القاذورات وغيرها ، كل ذلك يتنافى مع الانتماء الوطنى ، ومع وجوب طاعة أولى الأمر فيه ، بل إنها بالنظرة الدقيقة نجد النص عليها فى مصادر الشريعة من مثل قول النبى ﷺ : « لا ضرر ولا ضرار »(١) وقوله: « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » (٢) ولشمول الهداية الدينية ، يصعب الفصل التام بين أمور الدنيا والدين .

والانتماء إلى الوطن الأكبر يحتم علينا جميعا أن نحس بواجبنا أولا نحو الله ، فهو المنطلق للإحساس بالواجباب الأخرى ، وذلك بشكره سبحانه على نعمه التى لا تعد ولاتحصى ، فالشكر حارس النعم ، مستوجب للمزيد كما قال رب العزة سبحانه : « لئن شكرتم لأزيدنكم » (٣) ولا يكون الشكر إلا بحسن استخدام النعمة ، إنتاجا واستهلاكا .

---

(١) رواه مالك فى الموطأ وابن ماجه والدارقطنى وهو حسن .
(٢) رواه البخارى ومسلم .
(٣) سورة ابراهيم : ٧

والى جانب ما نشرته بخصوص ذلك فى رسالتى : « الإسلام والتحرر من الجوع » التى نشرها المجلس الأعلى للشئون الاسلامية بوزارة الأوقاف ، فى أكتوبر سنة ١٩٦٥ م ، توجد لدى المسلمين دراسات متخصصة فى بيان أسباب الأزمات ، واقتراح الحلول لها ، والمهم هو الأخذ بها وتنفيذها ، وأقصد بالتنفيذ التنفيذ الجاد المخلص ، لا التنفيذ الشكلى ، الذى تزداد فيه المصروفات ، ويقل العائد منها بشكل غير مرضى ، إن الفقر ليس فى قلة الموارد ومصادر الاستغلال ، فقد ملأ الله الأرض بما يكفى من وما يعيش عليها قبل أن يخلق الكائنات التى تعيش عليها بملايين السنين ، فهو سبحانه الحكيم الرحيم ، يتنزه عن أن يخلق خلقا ليموتوا جوعا ٠

قال تعالى : « قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين وتجعلون له أندادا ، ذلك رب العالمين ٠ وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام سواء للسائلين ٠ ثم استوى الى السماء ٠٠٠ » (١) ، والواجب هو السعى الجاد للوصول الى هذه الأقوات ، واستخراجها من مخازنها ، فهى

---

(١) سورة فصلت : ٩ — ١١

مضمونة متوافرة ، كما أكد ذلك بقوله : « وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها » (١) ، ومع ذلك قال : « هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه » (٢) ، فالجوع ناتج من فقر العقول وفتور الهمم ، لا من فقر خزائن الله ، فإن سطح الأرض اذا ضاق بغذاء من يعيش عليها - ولن يضيق أبدا - ففى البحار مصادر غذاء لا يتسع المجال لإيراد ما قاله المتخصصون عنها ، ويا ليت المسلمين الآن يقلدون غيرهم فى استغلال كل ما فى الكون لتوفير الخير لهم ، إن ضاقت بهم أوطانهم نزحوا الى غيرها مهما بعدت الشقة ، وزاحموا أهلها فى خيراتهم بما يملكون من علم وخبرة .

تلك هى زيادة الانتاج ، العامل الأول فى انفراج الأزمة ، أما ترشيد الاستهلاك فلا يقل أهمية عنه ، فالنتيجة الحتمية لهما إما الاكتفاء الذاتى ، بحيث لا نحتاج إلى الاستدانة أو نقلل منها ، وإما تحقيق فائض يدخر لمواصلة زيادة الانتاج ، والعبور من ضيق الضروريات إلى سعة الكماليات .

(١) سورة هود : ٦
(٢) سورة الملك : ١٥

التنسيق بين الضروريات والكماليات

إن من المنطق المعكوس أن نشغل بالتوافه، أو الأمور الثانوية ، وننفق عليها بسخاء ، فى الوقت الذى ننسى فيه الأساسيات ، أو نقتر فى الإنفاق عليها ، ثم نستمرئ الاستدانة ، وعواقبها وخيمة كما هو معروف ، فقديما كان المعسر يسترق عند الدائن ، يبيعه ويتصرف فيه كما يشاء ، وحديثا يسترق بنوع آخر من الرق ، إن لم يكن استعمارا سياسيا مكشوفا ، فهو استعمار مقنع ، يجعل المدين يدور فى فلك الدائن ، مسلوب الإرادة ، أو مقيد الحرية فى الفكر والسلوك .

إن الانطلاق وعدم التحكم فى الشهوات إسراف أو تبذير ، والله لا يحب المسرفين ولا المبذرين ، ومجاراة الأقوياء دون إمكانات تساعد على ذلك تكلف حذر منه الإسلام ، وأرشدنا إلى التصرف فى نطاق الوسع والطاقة ومن هدى الرسول ﷺ أن ننظر فى المظاهر المادية الكمالية الى من هو دوننا، لا الى من هو فوقنا، حتى لا

نزدري نعمة الله علينا (١) حتى الأمــور الدينية لا بد أن تراعى فيها الطاقة ، فإن المنبت لا أرضا قطع ، ولا ظهــرا أبقــى .

وبالاهتمام بالمظاهر والشكليات ضاعت دول وأسر وجماعات وأفراد ، قنعت من حياتها بالألقاب الجوفاء، كما قال الشاعر :

ألقاب ممـــلكة فى غير موضعهـــا
كالهر يحكي إنتفاخا صولة الأســـد

وأنبه الى رفض المقولة : « لا أعمل حتى يعمـــل غيرى » هل أنا فقط الذى يطلب منه العمل ، وعلى وحدى صلاح المجتمع ؟ إن كل إنسان سيتحمل نتيجة عمله من خير أو شر ، هكذا قال رب العزة : « كل امرىء بما كسب رهين » (٢) ، صحيح أن عمل الغير ـ وبخاصة من الكبار والمسئولين ـ يشجع على العمل للقــدوة ، وللقدوة تأثير كبير فى المجالات المختلفة ، لكن عدم عمل هؤلاء لا يبرر إهمال الآخرين ، فالقدوة تشجع ولا تبرر التقصير : « ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم،

---

(١) رواه الترمذى .
(٢) سورة الطور : ٢١

يرجع بعضهم الى بعض القول يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنـــين • قال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم بل كنتم مجرمين » (١) •

●●●

(١) سورة سبأ : ٣١ ، ٣٢

الإخلاص في العمل

كذلك أنبه الى رفض المقولة الشائعة على ألسنة العاملين بأجور مربوطة يرونها غير متناسبة مع متطلبات الحياة ، وهى : « على قدر فلوسهم أعمل لهم » إن هذه العبارة ليست مقياسا مضبوطا ، فكل انسان يحدده كما يريد ، وبمقتضى العقد لابد أن ينفذ العمل بأمانة وصدق ، وإن كانت هناك مطالبة بالتوازن بين الجهد والأجر فلتكن بالحكمة ، مع الايمان بأن الله لا يضيع أجر من أحسن عملا ، ولا يجوز أن يكون التراخى والاهمال والتقصير مقابلا لعدم الاستجابة للمطالب ، فالاستجابة لها لا تكون إلا من ناتج العمل الجاد ، حتى لا يلجأ الى الاستدانة بأثقالها ، ونتائجها الاقتصادية والسياسية الخطيرة ، جاء فى الحديث : « إنها ستكون بعدى أثرة وأمور تنكرونها » قالوا : يا رسول الله كيف تأمر من أدرك منا ذلك ؟ قال : «تؤدون الحق الذى عليكم، وتسألون الله الذى لكم»(١)

---

(١) رواه مسلم .

وصدق الشاعر إذ يقول :

من يفعل الخيرَ لا يَعدم جوازيهُ
لا يذهب العرف بين الله والناس

●●●

الحـــق والواجـــب

وأؤكد أن الحياة تقوم على قاعدة : « كل حق يقابله واجب » فلا ينبغى أن ننظر أولا الى الحق فنطالب به ، قبل أن ننظر الى الواجب فنؤديه ، عندما نالت المرأة حقوقها التى كانت محرومة منهـا ، نسيـت الواجـب عليها ، ذلك الواجب الذى يعتبر كثمن يدفع فى مقابل ما ملكته أو حصلت عليه ، ومن الواجبات المفروضـة عليها عند خروجها للعمل ، عدم الإضرار بواجبها الأول نحو البيت ، والتزامها بكل الآداب التى شرعها الدين، وهى معروفة لها تماما ، ومن هنا صار الحــق الذى حصلت عليه بدون الواجب المقابل ، كالمـال المسروق الذى لا يباركه الله أولا ، ولن تجنى منه ثانيا إلا سوءا لا يقتصر عليها وحـــدها ، بل يتعـــداها الى الأسرة والمجتمع كلــه .

وبخصوص العمل والانتاج قدم الواجب عليك أولا، ثم طالب بحقك ، وفى المقابل أوصى الحديث الشريف، الطرف الآخر ، بإنصاف من أدى الواجب ، وباعطائه

أجره قبل أن يجف عرقه ، فذلك يدعوه الى حب العمل، والزيادة منه واتقانه ، وهذه هى حكمة الجزاء العادل فى أمور الدنيا والدين ، وبالتفاهم المخلص والروح الطيبة بين الطرفين اللذين يعيشان فى أسرة واحدة ، يمكن أن تحل المشكلات ، وتتفادى الأزمات ، وأحذر ثم احذر من اللجوء الى الوسائل التخريبية ، من أجل المطالبة بالحق ، فلا يفعل ذلك إلا الشعوب الهمجية، الذين يخربون بيوتهم بأيديهم ، ولنا فى أسلوب بعض البلاد الشرقية الحديثة ، مثل رائع فى التفانى فى العمل ، والمطالبة الحكيمة بالحقوق دون تعطيل للإنتاج .

●●●

البنـــاء قبـل الهـــدم

ثم أنبه ـ وما أكثر ما أنبه ـالى وجوب البناء قبل الهدم ، فكرا وسلوكا ، وإلا تهيأت الفرصة للانحراف ، والتغيير الصحيح يقوم على هدم الفاسد من أجل إيجاد صالح يحل محله ، فلابد أن يكون الصالح فى المتنـاول الفعلى ، أو قريب غاية القـرب ، فالنفس لا تحتمـل الفراغ ، والرسول ﷺ فى تطويره للمجتمع ، حين أمسك بيده معولا لهدم الفاسد ، من الفكر والسلوك ، أمسك بيده الأخرى أداة البناء الصالح ، فكان نشاطه فى خطين متوازيين فى وقت واحد ، بتوجيـه من الله سبحانه ، قال تعالى : « هو الذى بعث فى الأميين ، رسولا منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة » (١) .

إن الهدم من أجل الهدم وكفى ، هو سياسة الحمقى، لابد من الاطمئنان الى نظام بديل للنظام الفاسد فى أى قطاع من القطاعات ، اذا أردت أن تخلع عن ولدك ثوبا غير صالح ، فليكن الثوب الآخر الصالح حاضرا،

---

(١) سورة الجمعة : ٢

فالولد لا يتحمل العرى ، وبخاصة إذا كانت صحتـه ضعيفة ، وتحاول بتغيير ملابسه أن تعالج ضعفه .

عندما حرم الله سبحانه بعض الأشياء ، كان البديل عنها من الحلال موجودا ، ولفت الأنظار اليه بتقديم ذكره ، ليترك الانسان الحرام عن طيب نفس ، واثقا بأن التحريم للمصلحة ، قال تعالى فى تحريـم الربا : « وأحل الله البيع وحرم الربا » (١) وقال فى تحريم بعض المطعومات : « قل لا أجد فيما أوحى إلى محرما على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دما مسفوحا أو لحم خنزير فإنه رجس أو فسقا أهل لغير الله به » (٢) لأن الله قد أوحى اليه ببيان الحلال الكثير بقوله : « هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا » (٣) إن الأمـر يحتاج الى دراسة واعية شاملة ، لإيجاد البديل الجديد، قبل أن يضرب أول معول لهدم القديم .

●●●

(١) سورة البقرة : ٢٧٥
(٢) سورة الأنعام : ١٤٥
(٣) سورة البقرة : ٢٩

القـــــوة

أن العالم الآن يعيش بمنطق القوة ، والقيم الأدبية لا تعيش إلا فى حراسة القوة ، وإلا ما قال الله سبحانه للمؤمنين بدينه الحق ، من أجل حراسته من الأعداء : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيـل ترهبون به عـدو الله وعـبدوكم وآخرين من دونهـم لا تعلمونهم الله يعلمهم » (١) « ولولا دفع الله النـاس بعضهم ببعض لفسدت الأرض » (٢) وقد قال الشاعـر الحكيم :

ومن لم يذد عن حوضـه بسنانه
يضرس بأنياب ويوطـأ بمنسـم

فـلابد أن يتسلح المسلمون بمثل سـلاح الأعـداء المتربصين أو أشد ، مـع الاستعانة بالله عن طـريق الايمان والتقوى ، فـلا يفل الحـديد إلا الحـديد ، والديبلوماسية الضعيفة قل أن تثمر فى هذا العصر ،

---

(١) سورة الأنفال : ٦٠.

(٢) سورة البقرة : ٢٥١

فمن لم يتذأب أكلته الذئاب ، يقول الشاعر :

ومن رعى غنمـــا فى أرض مسـبعة
ونام عنهـا تولى رعيهـــا الأســـد

ويقول آخـر :

ووضع الندى فى موضع السيف بالعلا
مضر كوضع السيف فى موضع الندى

إن الرسول ﷺ أمر المسلمين فى عمرة القضية بعـد صلح الحديبية ، أن يرملوا فى الأشواط الأولى وهـم يطوفون حول البيت ، والرمل سرعة المشى مع تقارب الخطا ، وذلك ليظهر لأهل مكة الذين وقفوا على سفح الجبل ، أن حمى « يثرب » لم تضعف قوتهم كما كانوا يظنون ، فلنبرهن للأعداء على أننا أقوياء ، عملا لا قولا فقط ، وذلك بالعمل الجاد المنتج فى كل المجالات .

●●●

الوقت من ذهـــب

ولنعلم أن الوقت ثمين لا يجوز أن يضيع سدى ، ولـ
در القائل :

من أمضى يومه فى غير حق قضاه ، أو فرض أداه
أو مجد أثله ، أو حمد حصله ، أو خير أسسه ، أو علـ
اقتبسه، ، فقد عق يومه وظلم نفسه .

بعد هذا كله - وفى الجعبة كثير من حصاد السنين
أقول :

إن الأمة الإسلامية بدولها ، وشعوبها وحكوماتها
لبنتها الأولى هى الانسان ، وبذرتها الحقيقية التى تنمـ
وتتفرع وتزهر وتثمر هى الانسان ، فإصلاحه لابـ
أن يكون فى الموضع الأول من الاهتمام ، والاصلا
لا يتم إلا عن طريق الدين ، وصحة العقيدة وإخلاص
العبادة ، واستقامة السلوك الشخصى والاجتماعى
وذلك عن طريق العلم ، تلقيا ونشرا وممارسة ، وبهذ
تطبق الشريعة التى ننادى بتطبيقها ، لا نقصر ذلك
على شخص معين ، أو جهة خاصة ، أو فى حدود ضيقة

الــــدين عصـــمة

وأؤكد أن الانطلاق فى الاصلاح أو إرادة التغيير لابد أن ينطلق من الصلة بالله ، فمن انقطعت صلته بربه لن ينجح فى عمله ، ومن تهاون فى حق الله فهو أشد تهاونا فى حق غيره ، أعجبنى فى هذا المقام ما حكاه من أثق به ، أن تاجرا للجملة فى « الخردوات » من الخواجات، كان يتعامل فى أوائل هذا القرن ، مع تجار التجزئة فى المدينة ، والقرى المجاورة لها ، دون اهتمام بكتابة وثائق بينه وبينهم ، اعتمادا على الثقة ، وإغراء لهم بالتعامل معه ، وكان يعطيهم السلع مقدما ، ويستوفى ثمنها بعد ، فجاء اليه تاجر قروى ليأخذ سلعا أخرى ويدفع ثمن السلع التى أخذها من قبل كالمعتاد، فاعتذر الى الخواجة بأن نقوده سرقت فى الطريق ، ورجاه أن يعطيه بضاعة أخرى ، حتى اذا باعها أحضر له ثمنها وثمن البضاعة الأولى ، فأراد الخواجة أن يتثبت من صدق ادعائه سرقة نقوده ، فهدأ روعه وهون عليـــه الأمر بعبارات مألوفة ، وقدم له زجاجة مياه غازيــة يخفف بها من شدة الحر ، وكان ذلك فى نهار رمضان ،

فشربها دون تردد ولا مبالاة ، ثم قال له الخواجة : عد الى بلدك مع السلامة والعوض على الله فيما عندك ، ولن أتعامل معك بعد ، فسأله التاجر لماذا ؟ فقال : اذا كنت أكلت ربك وأفطرت فى رمضان ، فمن السهل عليك أن تأكل الخواجة . (المراد أكل الحق) .

فالشاهد أن الذى لا ينطلق فى الاصلاح من منطلق الدين لن يكتب له النجاح الحقيقى ، وما يرى من مظاهر الحضارة عند غير المؤمنين فمآلها الى الخراب، وذلك لانعدام الضمير الدينى ، والشواهد على ذلك بارزة ، وقد قال رب العزة عن الجبارين السابقين : « فأما عاد فاستكبروا فى الأرض بغير الحق وقالوا : من أشد منا قوة ، أو لم يروا أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة وكانوا بآياتنا يجحدون » (١) وقال عن قارون الذى طلب منه أن يشكر الله على نعمته عليه : « وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد فى الأرض إن الله لا يحب المفسدين . قال إنما أوتيته على علم عندى أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا » (٢) .

---

(١) سورة فصلت : ١٥ .
(٢) سورة القصص : ٧٧ ، ٧٨

وأكرر التذكير بقول الله تعالى : « فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى • ومن أعرض عن ذكرى فإن لـه معيشة ضنكا ، ونحشره يوم القيامة أعمى » (١) لابد من تربية الضمير الدينى ، فالشكوى مرة من كثرة القرارات وتعدد اللجان ، والتحايل على أخذ المال ، والتباطؤ فى التنفيذ ، أو الغش فيه ، ولا نتيجة معقولة من وراء ذلك كله •

وبعـــد :

فقد تقدمت بهذه الشعلة المضيئة لمعالم الطريق ، لا لدنيا أصيبها ، فأنا فى إدبار عنها اليوم أو غدا ، وإنما هى واجب يفرضه الدين على ، ويحتمه الاشفاق على جيلنا الذى أرجو له كل خير ، وأحمد الله على النعم التى غمرنى الله بها ، لا أبغى بعدها إلا الخاتمة الحسنى ، وأشكره شكرا جزيلا على ما أولانى من تكريم لم أرق فيه ماء وجهى ، ولم أبع من أجله كرامتى ، فهو فضل منه ومنة •

وما كتبته هو كلمة حق اعتقدتها ، وقد أكون مخطئا فيها أو فى بعضها ، وحسبى أننى اجتهدت ، فما كان

---

(١) سورة طـه : ١٢٣ ، ١٢٤ .

من صواب فهو من الله ، وما كان من خطأ فهو منى ، وأرجو من الله العفو عنه والمثوبة منه ، إنها كلمة اعتصرتها من تجارب السنين ، ومما وفقنى للاطلاع عليه رب العالمين ، لا يشينها ملق ، ولا يشوبها حقد ، ولا أخشى فيها لومة لائم ، حاولت بها أن أكون فى ركاب من قال الله فيهم : « الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحدا إلا الله ، وكفى بالله حسيبا » (١) .

فإلى اللقاء أيها المسلمون وعدا حقا أمام الله فى ساحة القضاء يوم القيامة : « يوم لا ينفع مال ولا بنون . إلا من أتى الله بقلب سليم » (٢) « يوم يفر المرء من أخيه ، وأمه وأبيه ، وصاحبته ، وبنيه . لكل أمرىء منهم يومئذ شأن يغنيه » (٣) اللهم اغفر ذنوبى ، واستر عيوبى ، واختم لى بالخير يا رب العالمين .

آمين ، والحمد لله رب العالمين .

---

(١) سورة الأحزاب : ٣٩

(٢) سورة الشعراء : ٨٧ ، ٨٨

(٣) سورة عبس : ٣٤ — ٣٧

ولا أنسى قبل ختام كلمتى ، أن أتقدم بالشكر الجزيل إلى فضيلة الإمام الأكبر ، الشيخ جاد الحق على جاد الحق ، شيخ الأزهر ، على الأمر بإعادة طبع هذه الرسالة ، مع توجيهاته الرشيدة ، ونشرها على أوسع نطاق ، لخدمة الدعوة الإسلامية ، والتوعية الدينية الصحيحة .

فجزاه الله عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء .

عطية صقر

للتـــــــاريخ

الاسم : عطية محمد عطية صقر ، واسم الشهرة : « عطية صقر » .

جهة الميلاد : بهنا باى مركز الزقازيق شرقية .

تاريخ الميلاد : الأحد ٤ من المحرم ١٣٣٣ هجرية = ٢٢ من نوفمبر ١٩١٤ م = ٢٣ من هاتور ١٦٣١ قبطية .

نشأته : حفظ القرآن الكريم وسنه تسع سنوات ، وجوده بالأحكام وسنه عشر سنوات ، والتحق بالمدرسة الأولية بالقرية ، ثم بمعهد الزقازيق الدينى سنة ١٩٢٨م وتخرج فى كلية أصول الدين ، وحصل منها على الشهادة العالية سنة ١٩٤١ م ، والتحق بتخصص الوعظ ، وحصل منه على شهادة العالمية مع إجازة الدعوة والإرشاد سنة ١٩٤٣ م وكان ترتيبه فيهما الأول .

عمله : عين بالأوقاف فور تخرجه ، إماما وخطيبا ومدرسا ، بمسجد عبد الكريم الأحمدى ، بباب الشعرية بالقاهرة ، فى ١٦ من أغسطس سنة ١٩٤٣ ، ونقل الى مسجد الأربعين البحرى بالجيزة : « عمار بن ياسر

حاليا » فى فبراير سنة ١٩٤٤ م ، ثم عين واعظا بالأزهر سنة ١٩٤٥ م فى طهطا جرجاوية ، ثم فى السويس ، ثم فى رأس غارب بالبحر الأحمر ، ثم فى القاهرة ، ورقى إلى مفتش ، ثم مراقب عام بالوعظ ، حتى أحيل الى التقاعد فى نوفمبر سنة ١٩٧٩ م ، وعمل فى أثناء ذلك مترجما للغة الفرنسية بمراقبة البحوث والثقافة بالأزهر سنة ١٩٥٥ م ، ووكيلا لإدارة البعوث سنة ١٩٦٩ م ومدرسا بالقسم العالى للدراسات الإسلامية والعربية بالأزهر ، ومديرا لمكتب شيخ الأزهر سنة ١٩٧٠ م وأمينا مساعدا لمجمع البحوث الإسلامية .

وبعد التقاعد ، عمل مستشارا لوزير الأوقاف ، وعضوا بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، وعضوا بمجمع البحوث الاسلامية بالأزهر ، ورئيسا للجنة الفتوى ، وانتخب عضوا بمجلس الشعب سنة ١٩٨٤ م، وعين عضوا بمجلس الشورى سنة ١٩٨٩ م ، ومديرا للمركز الدولى للسنة والسيرة بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالأوقاف سنة ١٩٩١ م .

وفى مجال النشاط الخارجى : تعاقد مع وزارة الأوقاف بالكويت سنة ١٩٧٢ م لمدة سبع سنوات، وسافر فى رحلات الى إيران ، ثم أندونيسيا سنة ١٩٧١ م وليبيا سنة ١٩٧٢ م والبحرين سنة ١٩٧٦ م والجزائر سنة

١٩٧٧ م كما سافر في مهمة رسمية بعد التقاعد الى السنغال ، ونيجيريا ، وبنين ، والولايات المتحدة الأمريكية ، وباكستان ، وبنجلاديش ، والعراق ، وزار باريس ، ولندن .

وفى مجال النشاط العلمى : يشارك فى البرامج الدينية بالإذاعة والتليفزيون ، وتنشر له الصحف والمجلات ، ويقوم بالخطابة والوعظ ، ويعقد الندوات فى دور التعليم ، والمؤسسات المختلفة ، مع نشاطه فى لجنة الفتوى ، ومجمع البحوث الإسلامية ، والمجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، والرد على الاستفسارات الدينية تحريريا وشفويا .

حصل على وسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى سنة ١٩٨٣ م ، وعلى نوط الامتياز من الطبقة الأولى سنة ١٩٨٩ م .

وله مؤلفات كثيرة منها :

١ ــ الدعوة الإسلامية دعوة عالمية .

٢ ــ الدين العالمى ومنهج الدعوة إليه .

٣ ــ موسوعة الأسرة تحت رعاية الإسلام «٦ مجلدات» .

٤ - دراسات إسلامية لأهم القضايا المعاصرة .

٥ - توجيهات دينية واجتماعية .

٦ - بيان للناس عن التيارات الحديثة والمسائل الخلافية « مجلدان » .

٧ - س ، ج للمرأة المسلمة « ١٠٠ سؤال وجواب » .

٨ - المصطفون الأخيار « فى الرد على شبهات حول الأنبياء » .

٩ - الإسلام فى مواجهة التحديات .

١٠ - الإسلام ومشكلات الحياة « مجموعة فتاوى » .

١١ - من نور القرآن الكريم « نماذج حية للربط بين الدين والحياة » .

١٢ - الإسلام دين العمل « العمل والعمال فى نظر الإسلام » .

١٣ - منهج الإصلاح فى دعوة محمد ﷺ .

١٤ - الزكاة وآثارها الإجتماعية .

١٥ - الإسلام والتحرر من الجوع .

١٦ - الحجاب وعمل المرأة .

١٧ - البابية والبهائية « تاريخا ومذهبا » .

١٨ ـ فن إلقاء الموعظة .

١٩ ـ مختصر السيرة النبوة .

٢٠ ـ من أدب الدعوة .

٢١ ـ التعريف بالإسلام « رسـالة مركزة ترجمت للإنجليزية والفرنسية » .

٢٢ ـ نظرات فى التربية الإسلامية .

٢٣ ـ التفرقة العنصرية .

٢٤ ـ نظرة الإسلام إلى الرق .

٢٥ ـ دولة العلم والإيمان .

٢٦ ـ المحافظة على الأسرار .

٢٧ ـ مغزى العبادات فى الإسلام .

٢٨ ـ الإسلام ومكافحة المخدرات .

٢٩ ـ الإسلام هو الحل « المنهج السليم إلى صراط الله المستقيم » .

٣٠ ـ التدخين فى نظر الإسلام .

٣١ ـ الإباحة ومنزلتها فى التشريع تحت الطبع

٣٢ ـ منـارات على الطريـق ، فى الدين والأدب والاجتماع « عدة أجزاء » . »

٣٣ ـ أوضح الكلام فى الفتـاوى والأحـكام
« عـدة أجزاء » .   تحت الطبع
٣٤ ـ من علوم القرآن الـكريم .   »
٣٥ ـ دليـل الحـاج .   »
٣٦ ـ المسلمون فى العـالم .   »

●●●

الفهرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة



رقم الايداع ٩١٩٧ / ١٩٩١

I.S.B.N. 977 - 501 - 00 - 5

مطبعة الأزهر الشريف

٧٠٠٠ / ١ / ١٩٩٢

الـكتاب القـادم :

القـــرآن وحفـــاظه

فى عهد النبى عليه الصلاة والسلام

للأستاذ الدكتور

عبد العزيز غنيم عبد القادر

أستاذ التاريخ الإسلامى بجامعة الأزهر

الثمن ٢٠٠ قرش

مطابع الأزهر